روايات عبير الجديدة

فالنتينا ليولن

حتى آخر يوم في حياتي

www.elromancia.com

مرمورية

حتى آخر يوم في حياتي

فالنتينا ليولن

هناك، ربما تتمكن اخيراً من ان تصبح حرة مستقلة وتهرب من اولئك الذين اهانوها وجعلوها في مرتبة الخدم.

مفاجأة كبيرة كانت تنتظرها في بيترسبورغ، ذلك الذي كانت تظنه رسول الامير لم يكن سوى دمتري وريث الادشيف! احبته بكل كيانها لكنه ظل كالجليد... الا يقال بانه عشيق الامبراطورة كاثرين؟ اي امل يبقى لايما؟...

عندما امرها عمها وعمتها ان ترافق ابنتهما «آن» الى روسيا للزواج من الامير «نيقولاس ادشيف» الواسع الثراء، امتلأ قلب «ايما» بالامل.

- ١ -

الرجل الذي فتح باب الفندق باللحظة التي كانت فيها «ايما» تنزل السلم، كان طويلاً جداً لدرجة انه اضطر للانحناء حتى يجتاز العتبة، معطفه الفرو كان مغطى بالثلج، القى نظرة حوله قبل ان يخلعه ويرميه للخادم الذي دخل خلفه مع امرأة شابة يبدو انها خادمة عنده.

في الصالة الصغيرة لم يكن هناك سوى زبونين يتناولان حساء الملفوف مع الخبز الاسود، تحت معطفه، كان يرتدي بنطلوناً من الجلد وينتعل بوطاً طويلاً، له هيئة جندي او اقطاعي، اسرع صاحب الفندق نحوه منحنياً بكل احترام، بينما كان متعجرفاً وفظاً معها عندما دخلت.

اتجه الرجل المجهول بخطى واثقة نحو مدفأة الحطب التي في الطرف الآخر من الغرفة، وجهه قاس الملامح لكن شفتيه رقيقتان، يحيط بوجهه شعر اسود مربوط الى الخلف بشريطة من المخمل الاسود.

فجأة، رفع نحوها نظرة من عينيه الزرقاوين، فادركت بدهشة انه لاحظ وجودها بينما كان يتكلم مع صاحب الفندق، لم تفهم «ايما» شيئاً من كلامه الروسي، فهي لا تعرف كلمة من هذه اللغة المختلفة جداً عن لغتها، واهلها الذين التقت بهم مختلفون ايضاً عن اهل وطنها. عدة مرات خلال الاشهر الاربعة السابقة، كانت قد تساءلت لماذا لم ترحل عن آل تاران عندما طلبوا منها الرحيل عن انكلترا لتعيش في روسيا البلد البعيد البارد، لكنها كانت قد شفقت على قريبتها التي يريد عمها وعمتها ان يرسلاها الى آخر اوروبا، حيث يجب عليها ان تتزوج من أمير روسي لم تره من قبل.

انه تشرين الثاني من العام ١٧٦١ والبرد قاس جداً، الطرقات مغمورة بالثلج وعبورها خطير لدرجة الاستحالة. مرفأ كرونستات اصابه الجليد، فاضطرتا للسفر براً الى سانت بيتر سبورغ عربة البريد التي استقلتاها طوال الرحلة، الراكب الوحيد الذي كان شجاعاً كفاية ليرافقها، وقع مريضاً واضطر للبقاء في مزرعة على الطريق، ولتتويج كل هذا، تعطلت عجلة صغيرة في العربة وهم على بعد اربعين كيلو متراً من سانت بيتر سبورغ، في بلدة صغيرة، فتوقفت العربة امام نزل محلي.

النزل هذا مهمل متسخ بالإضافة الى الاستقبال الجاف، طلبت ايما افضل غرفة فيه، لكن ابنة عمتها انهارت عندما رأت الغرفة وانفجرت بالبكاء واحتاجت ايما لنصف ساعة كي تهدأها.

اغطية السرير لم تكن قد غسلت منذ اكثر من عام والمدفأة تملأ الغرفة بالدخان دون ان تدفئها، كانت ايما قد طلبت من صاحب الفندق ان يرسل لهما العشاء الى الغرفة لكنه لم يفعل حتى الان، فقررت ان تنزل وتكلمه لم تكن الفتاتان قد تناولتا شيئاً منذ الصباح.

«يبدو انك تائهة آنستي؟».

«اوه، الحمد لله انت تتكلم الفرنسية!» قالت ايما ببعض الراحة، رغم قلقها من التحدث الى غريب في بلد سمعت الكثير عن لصوصه وقطاع طرقه.

«لا ضرورة لان تخافي مني» طمأنها الرجل مبتسماً امام ترددها.

«انزلي وتدفئي قليلاً يبدو انك تشعرين بالبرد».

«شكراً، مدفئتي لا تعمل جيداً وجئت لاسأل صاحب الفندق اذا كان يستطيع ان يفعل شيئاً واذكره بان يرسل لنا العشاء».

قالت بخجل وهي تدفء يديها.

«ولكني لا استطيع البقاء هنا طويلاً لان ابنة عمي تنتظرني في الاعلى».

«ولكن اين خدمك؟».

«ليس لدينا خدم».

«ماذا؟ امرأتان وحدهما في هذه المنطقة وهذا الطقس السيء، انه الجنون!».

«انا وابنة عمتي كنا متجهين الى سانت بيتر سبورغ، وبما ان المرفأ متجمد، لم نستطع ان نفعل شيئاً آخر، كانوا قد وعدونا بمرافقة، لكن لم يكن هناك احد ينتظرنا...».

«يا الهي! انتما انكليزيتان؟».

«نعم، قريبتي الانسة آن تاران، قادمة الى سانت بيتر سبورغ للزواج من سون التس الامير نيقولاس ادشيف».

نهض الرجل ورفع قبعته احترام.

«اعذريني، ولكني لم اتعرف عليك...».

«تتعرف علي؟ ولكننا لم نلتق من قبل، سيد...».

«انت محقة، ولكن الوصف الذي سمعته عنك مشابه تماماً انا من ارسله سون التس امير ادشيف لمرافقتكما حتى سانت بيتر سبورغ».

تأملته بدهشة وهو يتابع بهدوء.

«لو صبرتما قليلاً، وانتظرتماني، لكنتما تجنبتما الكثير من المتاعب ولما وجدتما نفسيكما في هذا الفندق التعيس».

«انت تأخرت كثيراً، لم نكن نعرف ماذا نفعل...».

«كنتما ستتسببان لي بالبحث عنكما في كل البلاد! اخيراً، هذا من الماضي الان، انت الانسة فرازر اليس كذلك؟».

«ايما فرازر، وانت، سيد؟».

«نادني ديمتري، لقد حملت معي الهدايا لقريبتك من سون التس وهناك ايضاً القهوة الساخنة وبعض الطعام في العربة، تفضلي واخبريها بانني هنا وبانني سأصعد لاقدم لها اعتذاري واحمل لها العشاء. . . الا اذا كنتما تفضلان شوربة الملفوف التي يقدمونها هنا؟» اضاف عندما لاحظ انها لم تتحرك من مكانها.

انه ليس من النبلاء، لكنه مجرد خادم مثلها، الا انه يأمر ويتكلم كأنه هو السيد الكبير.

«انسة تاران ترتاح الان. سأقول لها بانك وصلت، بامكانك ان تصعد بعد عشرة دقائق».

رأت عبوس وجهه ولمحت التحديد في نظراته، فضمت معطفها حولها بتعالي وصعدت السلم دون ان تهتم بما يفكر به، لكنها كانت تشعر بنظراته على ظهرها عندما دخلت الغرفة، كانت آن لا تزال في المكان الذي تركتها فيه. لم تكن آن تكبرها سوى بعام واحد، لكن والداها كانا يدللانها كثيراً ولم يكن ينقصها شيء، الملابس الالعاب الخدم، وافضل المعلمين الذين حاولوا دون اية نتيجة تعليمها الفنون واللغات، بينما ايما عاشت في ظلها، لكنها فهمت باكراً انها ستبقى دائماً فقيرة ويجب ان تتصرف وتعمل لتكسب معيشتها.

آل تاران كانوا قد وافقوا على تقديم سقف لها واطعامها ولكن بشروط قاسية اولها ان تنفذ دائماً ما يطلبونه منها، وان تعترف بان والدتها اساءت الى شرف العائلة بزواجها.

في البداية. كرهتهم ايما كثيراً، لكنها مع الوقت،

اعتادت على احتقارهم لها وخاصة آن التي لم تكن تتردد في تذكيرها بمكانتها كلما اعتقدت انها تحاول ان ترتفع فوق الطبقة التي وضعها فيها آل تاران.

كانت ايما تحتمي خلف قناع اللامبالاة وتحتفظ لنفسها في اعماق قلبها بافكارها واحلامها وهمومها، قررت ان تخرج ذات يوم من حالة العبودية هذه، وكل يوم كانت تعتبر هذا التحدي رمز حياتها، بينما كانت آن تتشاءب وتشتكي من معلميها، كانت ايما تبقى جالسة، تصغي باهتمام واحياناً تقضي الليالي تدرس الفرنسية واللاتينية في العلية الباردة التي كانت مسكناً لها.

الا انها كانت موهوبة في الاعمال اليدوية والخياطة، وعدة مرات خاطت اثواباً لابنة عمتها التي كانت تفتخر بهذه الاثواب، ايما فرازر، ابنة اللايدي الانكليزية والجندي الاسكتلندي مصيرها ان تصبح خياطة! احياناً كانت ايما ترغب بتمزيق والدوس على الروائع التي كانت تخرج من بين انامليها. . .

كانت آن قد بكيت كثيراً وفقد شعرها الاشقر رونقه وملابسها اصبحت بحالة مزدرية بعد ساعات السفر الطويل في عربة البريد.

«يجب ان ترتبي نفسك قليلاً» قالت لها ايما وهي تتناول فرشاة الشعر كانت آن تشتكي دائماً وتنتقد ايما كلما قالت لها شيئاً، ولم تكن راضية عن زواجها من الامير الروسي النبيل الغني، والرحيل عن منزل والديها المريح في انكلترا لتعيش في عالم مختلف يقال بانه قاس وشبه بربري.

«ماذا سيحصل اذا رآك بهذه الحالة؟».

«من؟ دعيني بسلام. انا جائعة واشعر بالنعاس» اجابتها قريبتها بحدة.

«الامير نيقولاس ارسل احدهم للقائنا، انه في الاسفل...».

«اذا؟. فزوج المستقبل فكر اخيراً بارسال مرافق! حسناً قولي له بانني متعبة وغير قادرة على استقباله بامكانه الانتظار هو ايضاً...».

«ولكن هذا مستحيل! لا يبدو راضياً عن اضطراره للبحث عنا كل هذه المدة... قلت له ان يصعد بعد عشرة دقائق... احضر معه هدايا من سون التس وبعض الطعام».

على الفور، تبدل موقف آن، وسمحت لايما بأن تسرح لها شعرها كانت بغاية الشوق للتعرف على رسول الامير وخاصة على الهدايا التي ارسلها.

«قولي له انني سأستقبله» امرتها بجفاف وهي تنظر الى نفسها في المرآة التي تمسكها قريبتها.

آن فتاة جميلة رشيقة القوام، سبق ان ادارت عدداً من الرؤوس في العام الماضي وقضت فترة في فرنسا عند اقارب قدموها الى القصر، هذه الزيارة جعلتها تدرك جمالها وعلمتها كيف تستخدمه في الوصول الى غاياتها، كانت تعرف كيف تكون مرحة خفيفة، لكن مزاجها كان ينقلب بسرعة لتتحول الى فتاة عدوانية شرسة امام من لا يعجبها، كانت ايما منفث غضبها الوحيد وضعت ايما المرآة من

يدها والتفتت نحو الباب، رسول الامير كان يقف امام الباب يراقبهما بصمت وخلفه الخادم يحمل سلة، دون ان ينتظر دعوة، اقترب الرجل من آن التي ارتسمت على الفور على وجهها ملامح الازدراء.

«انه دميزي الخادم، رسول الامير نيقولاس» قالت ايما بسرعة محاولة منع المشهد الذي سيحصل، لان آن كانت دائماً قاسية مع الخدم.

«اتمنى ان يكون بقية خدم امير ادشيف افضل منك، اكره ان يتقدم احدهم مني دون اذن، لماذا تأخرت في المجيء؟».

«من المؤسف انك لم تنتظري يوماً او يومين آنسة تاران لكنت جنبت نفسك كل هذا التعب الغير ضروري، اتمنى ان تقبلي اعتذاري لانك تلقيت استقبالاً شيئاً في بلادي واتمنى ان اعرف كيف اجعل بقية رحلتك اكثر متعة».

جحظت عينا ايما من الدهشة، انه يتكلم ايضاً الانكليزية بدون اي خطأ.

«سون التس، الامير نيقولا، يرجو ان تقبلي هذه الهدايا المتواضعة عربوناً عن محبته» اضاف وهو يقدم لها صندوقاً خشبياً يحتوي على ثروة حقيقية من الالماس والؤلؤ والزمرد وكل هذه الاحجار الكريمة... تزين عقوداً واقراط وخواتم...

جحظت عينا آن وظلت لحظات بحالة ذهول قبل ان تمسك سلسلة مرصعة بالالماس وتناولها مبتسمة لرسول الامير الذي بدون اية كلمة، علق السلسلة حول عنقها.

تلمست آن السلسلة بكل كبرياء، انها تعامل كملكة وهذا يكفي لجعلها تنسى متاعب السفر، على كل حال، بدأ منفاها يبدو لها ذات ميزات. . .

«لو سمحت» تمتم ديمتري وهو يشير الى خادمه.

«اعلم انك متعبة ولكني اعتقد انك ستقبلين العشاء قبل ان ترتاحي مد المائدة جان. ثم انظر ما يمكنك ان تفعله لاصلاح هذه المدفأة، ايرين اقتربي وسلمي على سيدتك الجديدة!».

انحنت الامرأة امام آن.

«انها تتكلم الانكليزية، لهذا السبب اختارها الامير لخدمتك هي صادقة ومخلصة. . .».

«لدي خادمتي، لكني اعترف بانها لا تفي بكل حاجياتي» اجابته آن دون ان تلتفت نحو ايما.

«حالياً هي مشغولة جداً انني عهدت اليها بانهاء جهاز الزواج».

ادارت ايما ظهرها لقريبتها، وقد احمر وجهها من الاهانة، واخذت ترتب السرير.

«دعي هذا» امرها دميتري بحزم.

«ايرين ستهتم به فيما بعد» توقفت ايما لكن رغماً عنها، باي حق يصدر اليها الاوامر؟ في هذا الوقت، كان جان قد سحب طاولة الى منتصف الغرفة وبسط عليها شرشفاً ابيض ووضع عليها اطباقاً من الفضة مليئة باطيب الطعام وبزجاجة من نبيذ بورغوني.

«في انكلترا» قالت آن بحدة.

«ليس من العادة ان يتناول الخدم الطعام مع اسيادهم. هل العادات مختلفة في روسيا؟» قالت موجهة حديثهاالدمتري.

«لا، آنسة تاران» اجابها دمتري بتهذيب لكن عيناه كانتا تلمعان من الغضب.

«لكن السون التس اخبرني بان الانسة فرازر قريبة لك ولا يجب ان تعامل كالخدم نظرت آن الى ايما من رأسها حتى اخمص قدميها باحتقار لم يعد بامكان ايما تحمله.

«سأتناول عشائي في الاسفل، اذا رغبت بشيء ارسلي ايرين خلفي».

ثم خرجت من الغرفة مسرعة كانت تجلس قرب المدفأة عندما نزل دمتري بعد قليل صاحب الفندق لم يكن قد ظهر بعد ولم يهتم بها احد. شعرت باحتقار شديد عندما لم تتجرأ على الاشارة له قبل ان يفتح الباب ويخرج مع خادمه جان. انحنت اكثر نحو المدفأة وهي تتساءل ماذا يفعلان في الخارج في هذا الطقس العاصف، لكنه لم يبق طويلاً في الخارج بل عاد بعد دقائق قليلة يحمل سلة ثانية وضعها على طاولة قرب الفتاة.

«اتريدين مشاركتي العشاء، انستي، ام تفضلين تناوله وحدك كقريبتك؟».

سألها دمتري بمكر وهو يضع الاطباق وزجاجة النبيذ امامها.

نظرت اليه بامتنان ونظر اليها بلطف، ثم أمر جان بأن يقدم الطعام للجياد احنى الشاب رأسه وخرج بصمت.

www.elromancia.com

«ليس له لسان» شرح لها دمتري.

«سيده السابق قطع لسانه لانه اجابه بوقاحة في موسكو يكاد يموت من الجوع وهو في الثامنة من عمرة، ومنذ ذلك الحين، لا يبتعد عني، وهبني جسده وروحه وانقذ حياتي عدة مرات».

قبلت ايما الكأس التي قدمها لها وهي تتساءل من يكون هذا الرجل؟ يبدو من طريقة كلامها انه ليس خادماً ولا موظفاً ربما هو ايضاً وليد حب مثلها رمته عائلته فاضطر لكسب معيشته بخدمة الاخرين.

وكأنه قرأ افكارها، اضاف دمتري بهدوء.

«انا بخدمة والسون التس منذ عدة سنوات، اهتم بادارة اعماله وشؤونه تقريباً رجل لكل شيء، حسب الظروف يجب ان تأكلي قليلاً» الح وهو يناولها قطعة من الدجاج المشوي.

«ستكونين بحاجة لكل قواك لتتمكنين من مواجهة وقاحة وتسلط قريبتك».

كان الطعام لذيذاً، وما ان انهت الطبق حتى ملاه من جديد وقدم لها كأساً آخر، اذا كانت ستعامل هكذا، فستكون اقامتها في روسيا افضل بكثير مما كانت عليه عند اقاربها في انكلترا.

لم تكن لديها اية فكرة عن الاتفاق الذي ابرمه آل تاران بشأن قريبتها قيل لها فقط ان الشقيق الاكبر للامير نيقولاس ادشيف رأى آن في بلاط فرنسا واعجب بها على الفور واستعلم عن هويتها، عندما عادوا الى لندن، جاء لزيارتهم

ليطلب يد ابنتهم لاخيه ووافقوا على ذلك.

تساءلت ايما كثيراً عن قبولهم بهذا الزواج، لكنها كانت قد لاحظت منذ مدة انهم على شفير الافلاس ولن يكون بامكانهم منح آن دوتا الكثير لتتمكن من الزواج من لورد غني كؤلائك الذين تراقصهم وتخرج معهم اما آن فلم تكن موافقة على هذا الزواج وقد حاولت الاعتراض لكنها وافقت اخيراً عندما رأت اصرار والديها.

علمت ايما انه يجب عليها مرافقة قريبتها لان اللورد واللايدي تاران سيبقيان في لندن ولن يحضرا زفاف ابنتهما، تأخر صحة اللايدي كانت العذر الرسمي، لكن النقص في المال كان هو السبب الحقيقي.

انحنى دمتري ليملأ لها كأساً آخر، لكنها رفضت.

«شكرا، يجب ان اصعد لانام».

«النوم... ولكن اين؟ اذا رفضت آن مشاركتها العشاء، فهل ستسمح لها بمشاركتها السرير؟».

«الا زلنا بعيدين عن سانت بيتر سبورغ؟».

«مع هذا الطقس السيء قد نحتاج الى يومين تبدين متشوقة للتعرف على مسكنك الجديد».

«مسكني الجديد؟ للحقيقة لم افكر بذلك...».

«لكنك وافقت بسهولة على ان تبدلي حياتك كلها، هل رحلت بدون ندم؟ دون ان تتركي خلفك عزيزاً يبكي رحيلك؟».

«انا لست سوى خادمة مثلك، اذهب الى حيث يأمروني».

اجابته بحدة واتجهت نحو السلم بسرعة، لكنه تبعها وامام باب غرفة قريبتها، وضع يده على كتفها وهمس.

«لا تعالي، لا يوجد في هذه الغرفة سوى سرير واحد ولن تتمكني من النوم على الكرسي» ثم قادها الى آخر الممر وفتح باب غرفة صغيرة فيها سرير ضيق وكرسي.

«لا يوجد غير هذه الغرفة. لكن هنا على الاقل بامكانك ان تنامي».

«ولكن... هذه غرفتك» قالت بدهشة عندما رأت معطفه على السرير.

هذا لطف منك، لكنني لا استطيع...».

«بلى، انا سأنام في الاسفل، هناك دفء، وانا كنت جندياً ومعتاداً على النوم في العراة تصبحين على خير، آنستي» ثم خرج دون ان يترك لها مجالاً للاعتراض.

في اليوم التالي، تابعوا رحلتهم في عربة فاخرة بينما ركبت ايرين وجان في عربة الامتعة التي سبقتهم، قضوا هذه الليلة في فندق يبعد بضعة كيلو مترات فقط عن سانت بيتر سبورغ حيث استقبلوا بالترحيب وتناولوا العشاء قرب مدفأة كبيرة في البهو، ثم قادهم صاحب الفندق الى غرف منفصلة لكنها كلها دافئة ونظيفة. وفي اليوم التالي تابعوا رحلتهم رغم استمرار تساقط المطر.

«ايما. اتتظاهرين بعدم سماعي؟».

«انا... انا آسفة، لم اكن منتبهة...

«يقول دمتري باننا نقترب من القصر، اتعتقدين حقاً ان مظهري لائق؟ اوه، كم كنت غبية عندما استمعت

لكلامك! كان يجب ان ارتدي الثوب الاسود لكنك الحيت كي ارتدي هذا... الاخضر ليس جميلاً!».

«لكن هذا الثوب الاخضر يناسبك جيداً» قال دمتري بلطف.

«ولكن اذا كنت ترغبين، بامكاني ان اخبر الامير بامنيتك كي تبدلي ملابسك وترتاحين قليلاً قبل لقائه. انا متأكد انه سيوافق على كل رغباتك».

«نعم. افعل ذلك، لا اريد ان يراني هكذا، ثوبي الاسود اجمل، ايما، ستكوين ثوبي بينما تهتم ايرين بتسريحتي».

واخيراً دخلت العربتان باحة القصر المحاطة بالحدائق والاسوار، انه اشبه بالقصور الملكية، ويجاور قصرا آخر قال دمتري بانه القصر الشتوي للقياصرة.

ما ان توقفت عربتهم حتى هرع الخدم للقائهم بينما اهتم آخرون بايواء الخيول، فور دخول الفتاتين الى البهو صعقتا بفخامة القصر واثاثة.

«مع تحيات سون التس» تمتم دمتري مبتسماً عندما تقدم احد الخدم من آن يحمل صينية عليها كأس من الشمبانيا.

«اهلاً وسهلاً بكما في سانت بيتر سبورغ انساتي، لو تفضلتما وتبعتما سرجي، فهو سيقودكما الى جناحيكما غرفة الانسة فرازر ستكون مجاورة لجناحك».

تبعا الخادم الى جناح يشبه النماذج الفرنسية بأثاثه وديكوره ابتسمت آن باعجاب وجلست على كنبة واسعة.

هذا عظيم! هيا ايرين. ماذا تنتظرين؟ ساعديني في

خلع هذا الثوب المخيف. ايما جدي لي ثوبي الاسود وانزلي واكويه على الفور!».

افرغت ايما صناديق آن واخرجت من احداها الثوب المخملي البسيط لكنه جميل بقصته ايما لم تكن لتختار هذا اللون في لقائهما الاول مع زوج المستقبل، لكنها اعترفت لنفسها ان هذا الثوب يظهر رشاقة قريبتها وصدرها المستدير وكتفيها الرقيقتين.

بعد ساعة عادت ايما، تحمل الثوب المكوي وتأملت قريبتها بينما قالت «ايرين انت رائعة اكثر مما تتصورين. اتعتقدين انه سيرسل وراءك قريباً؟».

«سيرسل ورائي؟ انا لست خادمة عنده! ايرين اذهبي وقولي للسون التس انني مستعدة لاستقباله».

عادت ايرين بعد قليل واخبرتها بان الامير ينتظرها في الصالون الكبير.

«ارأيت؟» قالت آن بتهكم نحو ايما.

«بامكانك الان ان تفرغي الصناديق والحقائب!».

«لكن الاميرين يرغبان بان ترفقك الانسة فرازر، سيدتي» قالت ايرين.

«الامير نيقولاس الح على رؤية الانستين الانكليزيتين».

تمتمت آن ببعض كلمات الغضب وخرجت من الغرفة بتعال، ثم تبعتها ايما بدهشة وصمت.

فتح لهما احد الخدم باباً كبيراً فوجدتا نفسيهما امام السون التس الامير نيقولاس ادشيف، طويل، عريض الكتفين، اشقر الشعر، رقيق النظرات ابدى سعادة كبيرة

برؤية زوجة المستقبل، ابتسمت آن له وقبلت يده وهو يقودها الى داخل الصالون. يبدو انهما متناسبان، تنفست ايما بسعادة، فمنذ رحيلهما عن انكلترا وهي قلقة من فكرة هذا اللقاء الاول، بعد كل هذا السفر المتعب...

«قال لي اخي بانك جميلة، لكن ارى وصفة الحماسي بعيداً عن الواقع. انت اجمل بكثير مما وصف...».

الديه نقص في النطق؟ تساءلت ايم بقلق الا اذا كان قد شرب كثيراً احتفالاً بمجيء خطيبته...

«اعتقد ان الانسة هي قريبتك ايما، اقتربي آنسة، انا شاكراً لك لانك رافقت اميرة المستقبل، دمتري اخبرني بانك كنت تهتمين بها كوالدة حقيقية، اعذريني، ولكن انتما تعرفان شقيقي، اليس كذلك؟».

الرجل الذي كان جالساً امام المدفأة والذي لم تنتبها لوجوده، نهض والتفت نحوهما مبتسماً بمكر.

«انهما لا تعرفان سوى اسمي، يا عزيزي نيقولاس، ربما كان يجب علي ان اقدم لهما نفسي بشكل كامل. انستاي، انا الامير دمتري ادشيف الشقيق الاكبر لنيقولاس».

«انت! كيف تجرأت؟» قالت آن وقد احمر وجهها من الغضب.

«هذه مواجهة لا تحتمل!» ثم التفتت نحو ايما وهي ترتجف من الغضب.

«وانت كنت تعرفينه، اليس كذلك؟ لا بد انكما ضحكتما كثيراً خلف ظهري! كانت امي دائماً تحذرني من

انك حقودة. . . ».

«آن! انت لا تعرفين ما تقولين!» صرخت ايما تحت تأثير الاهانة.

«انا لم اكن اعلم من يكون. . . ولكني، اكد لها، ستصدقك انت» اضافت وهي تدير نظرها متوسلة نحو الابن الاكبر للادشيف.

«ان ما تتخيله احداكما لا يهمني» اجاب دمتري بجفاف «انا رئيس هذه العائلة، ولا اقدم حسابات لاحد».

ابتعدت آن عن ذراع نيقولاس الذي لا يزال يمسكها وتراجعت بسرعة تبعها نيقولاس ليمسكها، ورأت ايما قريبتها وقد شحب وجهها عندما رأت مشية خطيبها الغير طبيعية انه يعرج.

«لماذا لا تقدم لأن هدية الزواج التي احضرتها لها؟» قال دمتري وهو يربت على كتف شقيقه.

«لن يكون هناك اي زواج!» صرخت آن بذهول.

«لن اتزوج من سكير اعرج! ايما سنرحل على الفور!».

«والى اين ستذهبين آنسة؟» سألها الامير دمتري بحدة.

«انت جئت الى هنا للزواج من شقيقي وستتزوجينه رغماً عنك او بارادتك، لن تعودي الى لندن ابداً».

تقدم نيقولاس بضعة خطوات مترددة باتجاه طاولة وضع عليها زجاجة فودكا وسكب لنفسه كأساً وهو يحدق بخطيبته.

«انت محق. دمتري، لديها خصر عريض، يمكنها ان تمنحني وريثاً!» ووريثاً! انه يتكلم عنها وكأنها فرس، هذه

هانة كبيرة.

«لن ابقى هنا. . . لا، لا اريد! صرخت آن وانفجرت بالبكاء قبل ان تركض نحو الباب وتفتحه بشكل مفاجيء فوقع الخادم الذي كان يقف خلفه ونظر اليها بذهول».

«متسلطة. . . والاسوأ من ذلك، انها طفلة مدللة! عزيزي نيقولاس المسكين، الافضل ان تركض خلفها وتقدم لها هدية الزواج. رؤية المجوهرات ستهدأ من روعها والا سأكون مخطئاً في كل شيء حول اخلاقها وصفاتها».

«باي حق تعاملها هكذا؟» سألته ايما بانفعال وغضب.

«انها ليست خادمة عندك! تتصرف معها باحتقارو. . . ».

«انت تنسين مع من تتكلمين آنسة، سيتم الزفاف في الموعد المحدد».

«آن على حق، لا يمكنها البقاء هنا، لن تتحمل ذلك!».

«وما يهمك انت من مشاعرها؟ لماذا تزعمين بان هذا يؤثر بك بينما هي جعلت كل حياتك بؤساً وشقاءً؟ شقيقي يرغب بالزواج وانجاب الاطفال دبرت هذا الزواج بملىء رادتها، رغم مظهرها الذي لا يشير الى بلوغها سن لرشد، قريبتك جميلة وتملك كل ما يجب لاسعاد رجل، بعد عام او عامين، ستكون قد اعتادت على حياتها لجديدة، ستصبح امرأة واماً، ليس من باب الصدفة انني ..خترتها لتكون والدة لابناء ادشيف».

«اخترتها كي نجعل منها فرساً!».

«لا يوجد غير الدم الاصيل في اسطبلاتي» اجابها

بجفاف.

«اذا كنت مهتماً جداً باصالة سلالتك، لماذا اذاً لم تتزوج انت؟».

«انوي ذلك، لكني اخترت من ستكون زوجتي منذ مدة قصيرة، وسيتم ذلك الزفاف في العام القادم».

«وستنجب اطفالاً بدون حب! انا اشفق عليك! آن لن تقبل بزواج خال من الاحاسيس، اذا ارادت الهرب من هنا، سأساعدها بكل الوسائل» ثم هربت راكضة هي ايضاً، لكنها لم تلاحظ الا في منتصف السلم انها مجرد خادمة تجرأت على مناقشة الامير ادشيف، هي ابنة الامرأة التي ضحت بكل شيء من اجل حبها لرجل مات دون ان يترك لها فلساً واحداً... فجأة احست بيدين اقوى من الفولاذ تمسكان بيديها.

«الآن وقد أصبحنا بعيداً عن آذان شقيقي والخدم، بامكاننا متابعة نقاشنا، ولكن يجب ان احذرك بانني جلدت العديد على كلمات اقل بكثير مما تجرأت على رميه في وجهي».

«لم يعد لدينا ما نقوله سيد!».

وحاولت ان تحرر يديها، لكنه كان يمسكها بقوة لدرجة انها عضت على شفتيها كي لا تصرخ من الالم.

«قبل ان تقرر معاقبتي، يجب ان اذكرك انني لست خادمة عندك، وبانني مسؤولة عن أمن وراحة قريبتي امام اللورد واللايدي تاران، سأفعل ما اراه مناسباً لمصلحتها».

«ربما تعتقدين ان اعادتها الى انكلترا هو في مصلحتها؟

والداها تقريباً مفلسان ولن ينجحا ابداً بمنحها دوتا كافية لتزوجها من رجل حسب قلبها، انت لست سوى غبية؟ لن يجرؤ ابداً على الاعتراف لها بالحقيقة مع انها هي التي عجلت بافلاسهما شيئاً فشيئاً بانفاقها واستهتارها ولكن انت، تعرفين هذه الحقيقة، اليس كذلك؟».

«كنت اعرف انهم اقل مالا مما يتظاهرون» تمتمت بضعف.

«المهم ان آن لا تعلم، بامكان والديها الان ان يتمتعا بحياتهما ويحتفظان بدائرة اصدقائهما دون ان يلاحظ احد ما وصلا اليه. لقد وعدتهما بانه بعد زواج آن واستقرارها، سأسمح لهما بزيارتها».

«سأكلم آن» قالت بعد تردد وتفكير.

«ولكني لا استطيع ان اعدك بشيء، لست سوى خادمة حقيرة!».

«لان والدتي لطخت شرف عائلتها بزواجها من جندي بسيط وفقير، فحرمها جدي من ثروتها، فورث والدا آن كل الميراث بعد موته ووالدتي اضطرت للإتجاء اليهم بعد مقتل والدي في الحرب لصالح سارلز ستوارت وبعد وفاتها، بقيت انا عندهم».

«دون ان تكوني جزءاً من العائلة؟».

«آل تاران لم يقبلوا ابداً بزواج والدتي، يعتبرن انها لطخت اسم العائلة بحبها لجندي اسكتلندي لا يمكنه منحها شيء الا البؤس».

«حبٌ قوي جداً لدرجة تجعلها تتخلى عن ميراث

www.elromancia.com

وعائلتها واصدقائها...».

«وماذا جنت من ذلك؟» سألته ايما بمرارة.

«والدي قتل في ساحة حرب الكيلودن من قبل جنود الكمبر لاند، كنت في الرابعة من عمري وبالكاد اذكره...».

«وعادت والدتك الى ذويها!».

«كان والدها قد توفي في السنة السابقة لنزول شارلز ستوارت في اسكتلندا، لم يكن لديها المال وليس لديها ملجأ فاضطرت لطلب اللجوء الى منزل والديها، لكن شقيقتها وزوجها كانا قد استوليا على كل شيء وكي لا اموت جوعاً، ولكي احصل على سقف يحميني اضطرت والدتي لقبول الحياة القاسية التي فرضاها عليها كنت في سن العاشرة عندما توفيت والدتي من الالم والعذاب».

«وانت تكرهينهم؟».

«اكرههم؟» تمتمت بمرارة.

«احياناً كنت اتمنى موتهم، لكن الان لا، علموني ان كل العواطف هي مضيعة للوقت وللطاقة، عملت كي ادفع مقابل طعامي وملابسي، بتنظيف المواعين ومسح الارض والخياطة، ثم كمرافقة وخادمة لابنتهم، هذا اقل تكلفة من خادمة اخرى، قريبتي كلفتهم ثروة كبيرة، ماذا تريد؟ كانا يمنحانها كل شيء ولم تتعلم ابداً قيمة المال، الان، سأكلمها واحاول تعقيلها، ولكن...».

ترك يديها وقاطعها بصوت يحمل الكثير من التهديد.

«من مصلحتك ان تتبع قريبتك نصائحك. اذا حاولت

احدكما مغادرة المنزل، سأعيدها بالقوة اذا لزم الامر، هل هذا واضح؟».

«تماماً» اجابته وقد شحب وجهها وفهمت انه لن يتردد في تنفيذ تهديده.

«انا سعيد لاننا نجحنا في التفاهم اخيراً آنستي، احب ميزاتك، ولكن لا يعجبني تحفظك عن الصداقة في هذه الظروف على الاقل، يجب ان تكوني امينة وصادقة مع آل ادشيف، اتمنى ان لا اذكرك بهذا في المستقبل» ثم نزل السلم دون ان ينتظر ردها.

يا له من مستبد طاغية؟ وهي التي كانت تأمل في مصادقته... كانت تتوقع ان تجد قريبتها في حالة هستيرية، لكنها عندما دخلت الى الصالون، وجدتها هادئة، ممددة على الصوفا تتأمل تمثالاً من اليَشَم، يبدو ان المشهد الذي حصل منذ دقائق في الاسفل، نسي تماماً.

«انظري ايما الى هدايا الزواج التي على الطاولة، انها من نبلاء المنطقة واصدقاء آل ادشيف، انظري الى هدية الامير نيقولاس».

واشارت الى عقد مؤلف من الزمرد والذهب الملون...

«هل... هل قبلتيه؟» سألتها ايما بدهشة.

«بالتأكيد! اوه هل كنت تعتقدين انني كنت جادة منذ قليل؟ كنت غاضبة من دمتري فقط... تجرأ على التظاهر بانه احد الخدم ليتجسس علي، سأقول لنيقولاس انني اطالبه بالاعتذار على كل حال، انا راضية عن الحياة التي

كتبها القدر لي، بامكان نيقولاس ان يشرب قدر ما يشاء لن امانع في شيء طالما انه يغمرني بمثل هذه الهدايا، لا تنظري الي هكذا، لا تزال الحقائب تنتظرك لترتبي محتوياتها، سأرتدي الثوب الابيض هذا المساء، سترين، في نهاية العشاء، سأكون قد جعلت الاميرين كخاتم في اصبعي».

مع اقتراب عيد الميلاد، كان كل الخدم مشغولين بالتحضيرات للعيد، بينما ايما مشغولة بجهاز عرس قريبتها، منذ ثلاثة اسابيع على وصولها لم تخرج تقريباً من القصر، في حين ان آن كانت كل يوم تسهر في حفل من حفلات المجتمع الراقي، وكل يوم يمضي تزداد، انانيتها وحقدها على ايما، لم يكن يبدو عليها ان زواجها يشغلها او يهمها. اما بالنسبة لزوج المستقبل، فلم تحاول حتى ان تعمق معرفتها به، واتخذت ارين بدل ايما كمرافقة لها، فأحست ايما بانها دخيلة غريبة تعامل باحتقار دائم.

خلال هذا الوقت كله، لم تكن ترى الامير دمتري يبدو انه يقضي كل وقته في القصر الشتوي برفقة الدوقة كاترين، الخدم يتكلمون كثيراً عن هذه الصداقة الغريبة مع هذه الاميرة الالمانية التي زوجتها القيصرة لابن اخيها الامير بيار الذي لا يخفى ضعفه على احد، حتى انهم يهمسون بانه احد عشاقها الكثيرين...

كانت ايما تتفاهم وتتفق مع الخدم الادشيف وقد ساعدها هذا على تعلم لغتهم، ولم تكن تعاملهم بتعال بحجة انها قريبة خطيبة الامير، في الاسبوعين الاولين، كانت ايما

تتناول كل وجباتها مع العائلة، آن ونيقولاس ودمتري عندما يكون موجوداً، طبعاً هذا لم يعجب آن وبعد خمسة عشرة يوماً، اعلنت لها بكل تعجرف انها ستتناول العشاء من الان وصاعداً مع الخدم، لم تعترض ايما لانها على كل حال، لم تكن تشعر براحة الى جانب قريبتها الانيقة بملابسها بينما هي ترتدي دائماً ملابسها الاشبه بملابس الخدم لم تكن تتحمل رؤية محاولات الأمير نيقولاس في التحدث مع خطيبته والذي كان يواسي نفسه بعد كل فشل في اللجوء الى الخمر.

منذ نقاشهما العاصف يوم وصولها، لم تتبادل ايما ودمتري سوى كلمات التحية والتهذيب، وكان يبدو عليها الحياء لما يحصل بين آن ونيقولاس، ذات مساء، تشاجرا بعنف اكثر من المعتاد بسبب حفل دعيت لحضورة آن وتريد الذهاب رغم رفض الامير، فنهض دمتري ودخل مكتبه وتركهما يتابعان خصامهما وحدهما، وهكذا فعلت ايما ودخلت الى غرفتها.

منذ عام تقريباً تأخرت صحة القيصرة اليزابيث بتروفنا بتذير واسارف ابنة بيار الكبير لم يؤثر على ثروته، كانت قد ورثت عنه املاكاً واسعاً، وورثت ايضاً عيوب وقسوة هذا الطاغية الذي لم يتردد عن اعدام ابنه، انها مغرمة بالخيول وهي راقصة لا تعرف التعب، لا تترك حفلة من حفلات اصدقائها تفوتها دون ان تهتم بسنهم او بطبقتهم الاجتماعية.

كانت قد اعتلت عرش روسيا في سن الثلاثين واصبحت

بسرعة توازي كل الطغاة بالتأكيد كانت قد الغت الحكم بالاعدام لكنها بالمقابل لم تكن تتردد في سجن كل من يجرؤ على معارضة قراراتها، يقال بانها كانت تنفي الكثيرين الى سيبيريا حيث يعذبون بقسوة، والذين يرسلون الى هناك لا يخرجون مرة ثانية.

في حياتها الخاصة، كانت القيصرة تختار عشاقها من بين الخدم والحوذين او من الحرس وتبدلهم باستمرار ورغم تصرفها هذا، كانت ورعة جداً تحضر كل المراسيم الدينية وتتردد على الكنائس.

مع المن، بالتأكيد اثناء تناولها العشاء، وفي اليوم التالي انتهى المها المبرح وتوفيت، فأعلن ان اخيها حفيد بيار الكبير قيصراً على كل روسيا تحت لقب بيار الثالث.

البعض يزعم انه كان مجنوناً، هو رجل في الثلاثة والثلاثين من العمر لكنه بعقليته ابن عشرة اعوام، آخرون يقولون بانه داهية ورجل حرب كوالده الدوق دي هولستين، لكن شيئاً واضحاً للجميع هو كرهه لكل ما هو روسي، كان عمره اربعة عشرة عاماً عندما ذهبت عمته لتحضره من المانيا وابعدته عن عائلته واصدقائه لتمنحه اسم بيار بدل اسمه الالماني كارل الديش، وتجبره على الدخول الى الارثوذكسية ليتمكن من الاعتلاء بعدها على عرش رومانوف.

كان يظهر علنا كرهه لكل ما هو ليس الماني ويمضي معظم وقته في قصره دورانيبان حيث يعسكر جنود منيلف هولستين الذين يدفع لهم في حسابه الشخصي، كان يقوم

بتدريبهم بنفسه، وعندما كان يتعب من لعبة الحرب، كان يلجأ الى جناحه مع بعض جنوده.

كرهه لبلده بالتبني كان يضم ايضاً الامرأة التي ارغم على الزواج منها، الاميرة صوفيا اوغيستا دانهالت التي تحول اسمها الى الروسية واصبحت الدوقة الكبيرة كاثرين الكسيافنا هذا الزواج منذ بدايته كان فاشلاً، مع انه لم يمنع كاثرين من منحه طفلاً، اما بيار، فكان يهب كل النساء ما عدا زوجته... بعد ولادة، ابنه، بول الذي اعترف به بيار مرغماً، عاشت كاثرين حياة مستقلة تماماً واحاطت نفسها بالعديد من الاصدقاء والعشاق الذين اختارتهم من بين كبار الضباط وكبار الاقطاعين.

وحافظت على صداقة كل الرجال المهمين في موسكو وبيتر سبورغ، ما ان توج بيار قصراً لكل روسيا، عرفت كاثرين على الفور ان كرهه لها بامكانه ان يكون مدمراً بين لحظة واخرى، حتى قبل وفاة الامبرطورة اليزابيت، لم يكن قد تردد بطلاقه وكان يتكلم علناً عن رغبته بطلاق زوجته في اقرب فرصة.

في يوم دفن الامبرطورة، رفض القيصر بيار حضور المأتم وحبس نفسه في القصر الشتوي حيث سكر وعربد مع اصدقائه الذين منعهم من لبس السواد حداداً.

نجحت ايم افي انهاء جهاز قريبتها ووضعته بنفسها في حقائب لارساله الى مالايفكا، قصر اجداد الادشيف الكبير حيث سيقام حفل الزفاف لانه من غير الممكن اقامته في سانت بيتر سبورغ بسبب الحداد، اعترضت آن بشدة في

لبادية على فكرة تغير البرنامج، لكنها وافقت اخيراً عندما اخبرها الامير نيقولاس بان القيصرة شخصياً ستحضر الزفاف، وانها قبلت بكل سرور دعوتهم الى الريف حيث يمكنها اخيراً ان ترتاح قليلاً من الواجبات الرسمية التي تحملها على عاتقها منذ وفاة الامبرطورة اليزابيت بتروفنا.

الشجار الحقيقي بين آن والامير نيقولاس كان بسبب دعوة للعشاء عند الكونت والكونتيسة كوستيف، رفض الامير مرافقتها باصرار، فذهبت وحدها بدونه، وتركته يتناول العشاء وحده لان الامير دمتري كان قد خرج ايضاً هذا المساء.

كانت ايما تصعد السلم بعد ان كانت قد نزلت لتعيد صينية عشاءها الى المطبخ، عندما سمعت تحطيم زجاج وسيل من الشتائم جعل خداها يحمران رغماً عنها، كان نيقولاس خلف باب الصالون الكبير جالساً على كرسي يحاول لف منشفة ليوقف النزيف في يده اليمنى، والأرض حوله مليئة بحطام الزجاج، كان قد اكثر من الشرب.

«يا الهي. ماذا تفعل؟» صرخت بدهشة وهي تسرع نحوه.

«ارجوك دعني اساعدك، ربما لا يزال بعد الزجاج...».

تركها تتفحص جرحه وتمتم بصوت ملؤه المرارة.

«اذاً قريبة آن هي التي كانت موجودة لمساعدتي، الا تخافين مني؟ الخدم يخشونني لانني اغضب دائماً واثور عليهم، يحدث احياناً انني اشتم... وهذا ما تلومني عليه

قريبتك...».

«اعلم، سمعتك منذ قليل» اجابته ايما وعقدت الحاجبين امام عمق جرح يده.

«كيف امكنك ان تفعل هذا؟».

«كسرت الكأس بين اصابعي، انا اقوى بكثير مما ابدو عليه، ليس لانني املك رجلاً اطول من رجل لأكون رجلاً!» قال بحدة.

«لحسن الحظ، بإمكاننا وقف النزيف» قالت وهي تسحب شريط الجرس.

حضرت خادمة على الفور فأمرتها ايما باحضار ماءً ساخناً وبعض الضمادات وامرتها بارسال من ينظف الارض من حطام الزجاج.

«دمتري لم يكن مخطئاً» قال نيقولاس ضاحكاً.

«انت بالفعل فتاة عملية كما وصفك لي، كما وانه لا يخطىء في اي شيء كادارة املاكنا واختيار الجياد والنساء، انه حقاً لا مثيل له، أخبرني الكثير من الاشياء الحسنة عنك بعد عودته من فرنسا، حتى انني تساءلت مراراً اذا كان يجب الزواج منك انت بدلاً من قريبتك!».

ثم صمت قليلاً بينما كانت تنظف جرحه باهتمام.

«فكرة الارتباط بعاجز لبقية ايام حياتك لا تبدو تزعجك...».

«لقد قلت لتوك انه اذا كان لديك رجل اقصر من رجل فهذا لا يمنع كونك رجلاً» واحمر وجهها رغماً عنها.

«اذاً اسكبي لي كاساً من الكونياك، الزجاجة

www.elromancia.com

هناك...».

«لا اعتقد انه يجب عليك... الا تفضل فنجان قهوة؟».

«انت تتكلمين كأخي... حسناً ولكن اذا سكبت لنفسك فنجاناً ايضاً وبقيت برفقتي قليلاً، انا اشعر بملل هذا المساء...».

كان ابريق القهوة موضوعاً على طاولة صغيرة، اقتربت ايما وملأت فنجانين من البورسلين الرقيق ناولته فنجاناً وجلست بخجل ترشف فنجانها.

«لن استطيع البقاء طويلاً... كما وان القهوة بدون سكر».

«لماذا، انا اخيفك؟».

«اوه لا، ابداً».

«اتخشين ان يغضب هذا قريبك؟ احياناً اقول لنفسي بانه يجب علي ان اجلدها لتعرف جيداً من هو السيد هنا».

«هذا لانك شربت كثيراً تقول هذا الكلام... اعذرني، لا يحق لي ان اكلمك هكذا...».

«ولما لا؟ انت على حق، لقد شربت كثيراً، هذا يمنحني الجرأة على مواجهتها، اتعتقدين انني لا ادرك بانها لم تقبل بهذا الزواج.

الا من اجل المال والمجوهرات التي اقدمها لها؟ ومع ذلك اضحي بكل شيء كي تبقى معي... بكل شيء!».

«انت تحبها... يجب عليك ان تقول لها...».

«فعلت هذا المساء ايضاً، لكنها نعتني بالسكير، طلبت

منها الا تذهب الى منزل آل كوستيف، وان تبقى وتتناول العشاء معي ولو لمرة واحدة. لكنها لم تفعل».

«اتمنى لو كان بامكاني ان افعل شيئاً من اجلك...».

«بالرغم من خصامكما الحالي، اعتقد انك صديقتها الحقيقية الوحيدة، ولكن حالياً، لا يمكنك ان تفعلي شيئاً، وفاة القيصرة يسمح لي بامكانية مغادرة البلاط والتنزه لبعض الوقت في اراضينا، ربما هناك بعيداً عن ضوضاء المدينة، نتمكن انا وآن من التفاهم بشكل افضل».

«اتمنى ذلك».

«هل انت سعيدة هنا، ايما؟» سألها منادياً اياها لاول مرة باسمها.

«نعم لماذا؟».

«اخبرتني آن بانك لست سعيدة هنا. وانك تغارين من ايرين لانها اخذت مكانك بجانب آن، وانك ترغبين بايجاد عمل آخر اذا كان هذا صحيحاً، فأنا وشقيقي سنساعدك قدر امكاننا...».

وصلتهما اصوات من الخارج، فارتمى الامير نيقولاس على الكنبة وكأن الخمر اثرعليه الان دفعة واحدة، ثم فتح الباب بسرعة ودخل الامير دمتري برفقة آن التي تأملت خطيبها وقريبتها بدهشة.

«ماذا تفعلين هنا بمثل هذه الساعة المتأخرة؟» سألها دمتري وهو يخلع معطفة وقفازيه.

«سون التس، شقيقك جرح يده عندما حطم الكأس فعالجت جرحه...».

«كان ثملاً، مرة اخرى!» صرخت آن بحدة.

«كان مستاءً لانك لم تبقي معه هذا المساء...».

«وتجرأ على الكلام عني معك، انت احدى خادماتي! لا هذا كثير! وكأنك موهوبة في نيل ثقة الرجال، الم تتناولا العشاء معاً! كان من الافضل اعادتك الى انكلترا، هناك يعرفون كيف يضعونك في مكانك المناسب!».

شحب وجه ايما ولم تجبها بينما خرجت آن وصفقت الباب خلفها بحدة وعنف.

«بامكانك ان تفتح عينيك الان، لقد خرجت خطيبتك» قال دمتري وهو يقترب من الكنبة التي يجلس عليها شقيقه ويتظاهر بالنوم.

«ليحملها الشيطان! لن تكون نفس الاغنية في مالا يفكا» ثم التفت نحو ايما واضاف.

«شكراً لك، ايتها القريبة، لا تخشي شيئاً مما قالته آن، للحظة تساءلت اذا لم تكن تغار منك، على كل حال...».

«لم يكن يجب علي ان اكون هنا... يجب ان اذهب لرؤيتها».

«كما تشائين» تنهد الامير دمتري، ولكني لو كنت مكانك لتركتها ترتاح».

«انا ايضاً سأذهب للنوم» قال نيقولاس وهو ينهض متثائباً.

«هل انهيت جهاز عرس قريبتك؟» استوقفها دمتري بينما همت ايما بالخروج.

«نعم...».

«انا بغاية الشوق لرؤية روائعك وجلالتها ايضاً، منذ ان كلمتها عن اشغال الابرة التي تخرج من بين انامللك».

كلم الامبرطورة عنها! اي حظ يبتسم لها اذا اهتمت جلالتها بها!».

«شكراً لك سون التس عندما تتزوج قريبتي، لن يعد هناك سبب لبقائي بخدمتها، يجب علي اذاً ان ابحث عن عمل».

عقد الامير حاجبيه، لكنه لم يبدو متفاجئاً مما قالته.

«اعلم انك وآن لستما متفاهمين حالياً، وان اخفاء هويتي في الفندق هو سبب حالتها الغريبة هذه. اذا لم تسر الامور على ما يرام في مالايفكا، قد اقدم لك عملاً آخر».

«من اي نوع، سون التس؟».

«عمل يأخذ الكثير من وقتك، لكنه لن يكون مزعجاً، سنتكلم بهذا بعد الزفاف في كل الاحوال، لن تعودي الى انكلترا، لا تقلقي ابداً بالنسبة لهذا الموضوع».

«انا لا انوي الرجوع الى انكلترا كي اعامل هناك كالرقيق من جديد، افضل ان اعمل عملاً شاقاً وبراتب زهيد على العودة الى هناك».

«آه، اذاً تملكين حس الحرية، حسب ما سمعته عنك، انك قبلت ان تكون روسيا موطنك الثاني، الافضل لآن ان تتبع مثالك، هذا سيجنبها الكثير من المشاكل في المستقبل».

«عندما رأيت الشواطىء الانكليزية تبتعد، احسست

www.elromancia.com

ببعض الكآبة، لكني اليوم ممتنة لآل تاران لانهم منحوني فرصة الرحيل، هناك في موطني لم اكن سوى خادمة وخادمة غير مقبول بها».

«انت تملكين نفس مزايا والدتك، اليس كذلك؟ لكنك الان في منالي انا اتمنى ان تؤخري قرارك بالرحيل حتى زواج قريبتك، بعده، يمكننا الكلام عن مستقبلك بشكل افضل».

تأملته ايم بدهشة، وهزت رأسها موافقة، لم تكن تشك انه يهتم بمشاكلها لهذه الدرجة، المهم انها ستترك خدمة آن بعد ايام معدودة ال ادشيف لديهم علاقات واسعة تمكنهم من ايجاد عمل جيد لها.

كانت اراضي الادشيف تقع في منتصف الطريق بين قصر القيصر في اوارننبان والقصر الصيفي في بيتر هوف، الرحلة بين السهول المغطاة بالثلوج، تمت بدون حوادث وبشكل مريح جداً، الخدم رحلوا قبل يوم على رحيل الاسياد ليتمكنوا من تجهيز المكان لاستقبالهم، وبعد ان مرت العربتان بين اشجار الصنوبر والسندر ظهرت بعض القرى الصغيرة المنتشرة على التلال، سلكت العربة الاولى التي تسبق العربة التي تقل آيرين وايما ممراً طويلاً محاطاً بالاشجار، وكانت تقل آن والاميرين، ودخلت ساحة قصر كبير قديم مرتفع.

كان الطقس بارداً، فأدخل الامير نيقولاس آن على الفور الى الداخل بينما تأخرت ايما كانت تتأمل المنطقة الواسعة المحيطة بالقصر.

هب هواء بارد اعادها بالذكرى الى اربعة عشرة عاماً عندما كانت صغيرة تمتطي الجواد امام والدها الذي يحميها بكل محبة، ارتعشت وتلألأت الدموع في عينيها.

«انت تعلمين في الربيع كل شيء مختلف» قال الامير دمتري الذي كان يقف خلفها ويراقبها بفضول.

«انه الطقس جميل ايضاً الان».

«اذاً لماذا ترتعشين؟ ذكرى محزنة؟».

لم تجبه الفتاة لان الدموع كانت تخنق حنجرتها.

«تعالي وادخلي لتدفيء نفسك» نصحها وهو يحيط كتفيها بذراعه بكل حنان، كانت النار تلتهب في المدفأة في وسط البهو الكبير، كل شيء هنا ايضاً يدل على الفخامة والثراء، لاحظت ايما ابتسامة الرضا على وجه قريبتها وهي تتجول بين الاثاث الفاخر المحيط بها، جاءت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها جميلة ورقيقة للقائهم على الفور.

«انت ايما، بدون شك» قالت لها الفتاة وهي تمد يدها نحوها.

دمتري قدم لي عنك وصفاً دقيقاً لدرجة انه بامكاني التعرف اليك من بين الف فتاة، انا ماشا ادشيف، شقيقة نيقولاس اهلاً وسهلاً بك في مالايفكا!».

كانت عيناها مليئتين باللطف، وزرقاوين كعيني دمتري، لكنها اقل قسوة.

تبعت ماشا الى قرب المدفأة هي ايضاً كالامير دمتري تعتبرها كفرد من العائلة لانها اسرعت وقدمت لها كوباً من

الشوكولا الساخن قبل ان تجلس قرب اخيها وتبدأ بطرح العديد من الاسئلة حول مراسم دفن القيصرة واخبار البلاط واخيراً عن زواج آن ونيقولاس القريب.

«انا بغاية الشوق للعودة الى سانت بيترسبورغ! هنا كالمعزولين متى سيتم الزفاف؟ انا متشوقة لرؤية الناس..!».

«بعد غد» اجابها دمتري مبتسماً.

«كونك سيدة المنزل سيكون لديك الكثير من العمل، يا عزيزتي، وستستقبلين جلالتها، والكثير من المدعوين... لن تشعري بالملل ابداً، اؤكد لك!».

«جلالتها؟ الامبرطورة!» صرخت ماشا وهي تنظر الى اخيها بدهشة.

«ولكن لماذا لم تخبرنا من قبل، يومان لن يكونا كافيين...».

«اهدأي يا صغيرتي، كنت امزح فكل شيء جاهز، لن يكون عليك سوى ان تلعبي دور المضيفة الرائعة، هذا لن يكون سهلاً، لماذا لا ترافقي خطيبة اخيك الى جناحها؟ الوقت مناسب لكي تتعرفي عليها جيداً جميل ان نعود الى هنا، اليس كذلك، نيقولاس؟ بامكاننا اخيراً ان نرتاح...».

«شقيقي لديه رأي مميز حول موضوع الراحة» قال نيقولاس ضاحكاً عندما يأتي الى هنا يقضي النهار كله على صهوة الجواد، هل تجيدين امتطاء الخيل، يا قريبتي؟» اضاف ملتفتاً نحو ايما، وكان منذ ان عالجت يده يناديها بقريبتي مما يثير سخط وحقد آن.

«لم يسمح لي وقتي بالتعلم» اجابته ايما بمرارة.

«ما ان نحتفل بزواج آن ونيقولاس، يجب ان تتعلمي ركوب الخيل، ماشا فارسة حقيقية، ستعلمك بكل سرور» تدخل دمتري مبتسماً.

«يحق لك بمكافأة وراحة بعد الوقت الذي قضيته في العمل على جهاز قريبتك».

«آه، اعتقد انني فهمت انك لن تحضري حفل زواجنا» قال الامير نيقولاس بدهشة.

كلمات الامير كانت كالصاعقة على نفس ايما، اذاً آن اتخذت تدابير لتجنب نفسها الاحراج من اضطرارها لتقديم قريبتها الى كل اصدقائها الجدد!.

«ما كل هذه القصة؟» سأله شقيقة دمتري وهو يعقد حاجبيه.

«اخبرتني آن بان ايما لا ترغب بحضور الاحتفال بالزفاف...».

«اهذا قرارك ام قرار آن؟» سألها دمتري.

«منذ وصولي الى روسيا، وانت وشقيقك تعاملاني كقريبة. انا ممتنة لكما لطفكما، لكن يجب ان اعترف بانه في انكلترا، لم يكن آل تاران ينظران الي بنفس النظرة، بسبب هذا، وضعي اصبح قلقاً منذ عدة اسابيع، برأيي، انا... ليس لدي مكان في هذا الاحتفال، آن على حق عندما اعتقدت انه من الافضل لي عدم حضوره».

«آنسة ايما، عندما سيكون من الضروري وضعك في مكانك، فانا من سيفعل، ولا اتحمل ابداً ان يسمح احد

آخر لنفسه بان يوجه لك مثل هذه الملاحظة في منزلي».

«شكراً لك، سون التس، ولكن لو سمحت، الافضل ان اذهب وافرغ الحقائب».

«تفضلي، ارجوك».

قضت ايما بقية النهار في ترتيب اغراض قريبتها واثوابها في الخزائن.

كانت آن منذ وصولها الى روسيا لا تتوقف عن شراء الملابس ومعاطف الفرو وكل ما ترغب به بالاضافة الى ما كانت تخيطة لها ايما فيما بعد، وعندما انتهت من الملابس، رتبت ايما هدايا الزواج التي ارسلت لآن والتي ملأت خمسة صناديق خشبية كبيرة.

كان الظلام قد هبط عندما ارادت ايما ان ترتب اغراضها، لكنها بحثت في كل زوايا الغرفة عن حقيبتها الوحيدة فلم تجدها، في هذه الاثناء كانت آن ممددة على الصوفا تثرثر مع ماشا، عندما رأت ايما تروح وتجيء هكذا عقدت حاجبيها وسألتها بحدة عما تبحث.

«لا اجد اغراضي، ربما نقلوها الى غرفتي... لو تسمحين لايرين بأن تدلني على غرفتي».

«ايرين لديها اشياء اخرى تفعلها!» اجابتها آن بكل احتقار.

«بامكانك ان تسألي احد الخدم، على كل حال لست بحاجة اليك هذا المساء بامكانك ان ترتاحي!».

ما كل هذا التسامح! فكرت ايما بمرارة، ولكنها تعلم انه لا جدوى من الاعتراض وغادرت الغرفة بدون اية كلمة لم

تجد صعوبة في ايجاد غرفتها انها في الاعلى في العلية، حقيبتها على السرير الحديدي الذي يشكل مع الخزانة الصغيرة كل اثاث الغرفة.

عندما تذكرت غرفتها المريحة في سانت بيتر سبورغ، كادت تجهش بالبكاء، لكنها تمالكت نفسها ورتبت اغراضها، على كل حال، تخشيبتها الباردة في لندن لم تكن افضل مع قليل من الصبر، كل هذا سيتدبر وهي تملك ارادة قوية تسمح لها بالخروج من هذا الوضع ذات يوم.

في صباح اليوم التالي، استيقظت متأخرة، وارتدت ملابسها على عجل، كيف حصل انهم لم يرسلوا ايرين لايقاظها؟ الاحتفال بالزفاف بات قريباً جداً، ولا يزال هناك اشياء كثيرة تقوم بها! عندما دخلت الى غرفة آن، اكتفت هذه الاخيرة بان القت عليها نظرة جافة دون ان تقول لها صباح الخير وتابعت تناول فطورها، تمتمت ايما ببعض كلمات الاعتذار واحمر وجهها قبل ان تسألها.

«ستجربين ثوب الزفاف هذا الصباح؟ لا اعتقد انه بحاجة لاية رتوش، ولكن ربما ترغبين بالتحقق منه بنفسك؟».

«انت لم تفهمي جيداً، ايما، او انت تتعمدين ذلك؟ سألتها آن بتعال.

«ايرين قادرة على الاهتمام بي اليوم وغداً ودائماً. انها عملية وامهر منك بالاعتناء بي، انت قررت ان تبحثي عن مكان آخر ليس لدي اي مانع، ولكن لا تعتمدي كثيراً على

مساعدة او نفوذ نيقولاس وشقيقه، بالمناسبة تناقشت مع دمتري وهو متفق معي على ايجاد عمل مريح لك في موسكو».

«في موسكو؟» صرخت بدهشة ولم تكن تتخيل انه بامكانهم ان يحرمونها من حق اختيار عملها ومكان اقامتها...!.

«ولكن لماذا اذهب الى موسكو؟ بامكاني ان اقيم في سانت بيتر سبورغ واجد عملاً كمدبرة منزل او خياطة».

«كي يأتي الجميع ويسألونني انا الاميرة ادشيفا عما تفعله قريبتي؟.

«لا شكراً، ستذهبين الى موسكو او تعودين الى انكلترا، القرار يعود لك».

«هكذا تتخلصين مني، اليس كذلك؟» صرخت ايما وقد اعماها الغضب.

«انت حمقاء آن! انا لا ارغب بالتدخل في شؤونك الخاصة، كما وانني منذ اسابيع لم اعد اتحملك واتحمل احتقارك لي، واذا كان الامير نيقولاس يحبك وانت تستغلين مشاعره نحوك بكل خفة...».

«كيف تجرئين؟» صرخت آن ورمت نفسها عليها قبل ان تقوم ايما باية حركة للدفاع عن نفسها، وصفعتها على خدها كأنها اصيبت بنوبة هستيرية.

«اخرجي، اختفي من امامي! لا اريد ان اراك في منزلي!» انهمرت دموع ايما حتى اعمت بصرها، فركضت نحو الباب وعلامات الدهشة على وجهها.

«اعذريني، سمو الاميرة...».

«ايما؟ كنت ابحث عنك لتوي، شقيقي دمتري كلفني ان اقول لك...».

دمتري انه آخر شخص ترغب ايما برؤيته، لا بد انه يريد ان يخبرها بانه وجد لها عملا في موسكو حيث لا يعرفها احد، وحيث لا يمكن ان يؤثر على اسم عائلة ادشيف، تجاهلت نداءات الاميرة ونزلت السلم بسرعة ولم تدر كيف اصبحت في الميدان حيث ظلت تركض حتى فقدت انفاسها، عندما توقفت اخيراً وجدت حائطاً استندت عليه واجهشت بالبكاء كلما هب الهواء، كان يهز اغصان الشجر فيتساقط الثلج البارد على رأسها فترتجف في ثوبها الخفيف، ما ان هدأت حتى سلكت نفس الطريق التي قطعتها منذ قليل، مع قليل من الحظ، ربما تنجح في الدخول الى غرفتها دون ان يراها احد ويحرجها في اسئلته.

لكنها في اللحظة الاخيرة فقط سمعت وقع حوافر الخيل مع صرخة ذعر، فرمت نفسها كي لا تهشها الخيل، كانت ترتجف من البرد والخوف عندما سمعت سيلا من الشتائم باللغة الروسية ثم بعد لحظات رأت الامير دمتري ادشيف ينحني بقلق ليساعدها على الوقوف وهو يتحسس اعضاءها ليتأكد من عدم وجود كسور عظمية.

«هل انت مجروحة؟ اي شيطان دفعك كي اجدك في الخارج.

مع هذا الطقس العاصف وبدون معطف

كتفيك؟».

شكراً... شكراً... انا اسفة... لم اسمعك وانت قادم».

«انا المخطىء، الثلج كان يحجب الرؤية وكنت شارداً في احلامي... كنت تبكين؟» اضاف وقد لاحظ احمرار عينيها.

«ستعودين معي على صهوة جوادي وستروين لي كل ما يزعجك».

وبقفزة رشيقة اصبح على سرج حصانه ثم امسكها من خصرها واجلسها امامه قبل ان يمسك بالزمام وينطلق بهدوء نحو المنزل.

عضلات ذارعيه حول كتفيها كانت صلبة وحنونة، واحست ايما برعشة تهز كل كيانها، يجب ان ترحل قبل ان يصبح انجذابها نحوه اقوى... بعد دقائق قليلة، وصلا الى امام الباب دون ان يتبادلا الكلام، حملها دمتري بين ذراعيه ونقلها الى الصالون الكبير حيث يتبادلا الكلام، بكل هدوء، بنفس اللحظة، ظهر جان خادم دمتري ودون ان ينتظر الاوامر، ملأ كأسين من البورتو قدمهما اليهما.

«هذا جيد، يا صغيرتي» شكره دمتري وقرب الكأس من شفتي ايما الزرقاوتين.

احرق الكحول حنجرتها، لكنها على الفور شعرت بالتحسن، لقد وجدت من جديد دمتري المهتم بها الذي التقت به في الفندق.

«اذاً!» سألها بقلق ما ان تتورد وجنتاها.

«اعتقد... اني مع كل هذه التحضيرات لزفاف آن، توترت قليلاً وخانتني اعصابي...».

لاحظت من نظراته انه لا يصدقها.

«آن هي التي طردتك، اليس كذلك».

احنت ايما رأسها، وعقد دمتري حاجبيه.

«مع الوقت، يجب ان تتعلم كيف يشكر المرء اصدقاءه، ولكني لست مندهشاً، وانت بنفسك قلت لي بالامس...».

«نعم... ولكنها دفعة واحدة اظهرت قسوة كبيرة وكأنها كانت تكرهني، وكأن كل هذه السنوات التي قضيناها معاً لم يكن لها اي وجود».

«غداً، ستصبح مسؤولية نيقولاس، لن يكون هذا شأنك ولا شأني حان الوقت لتفكري قليلاً بنفسك وبما ترغبين بعمل».

«الم يأخذوا قرار ما يجب ان افعله بدلاً مني؟» سألته بمرارة.

«الم يقروا ارسالي الى موسكو، بعيداً عنها كي لا يلطخ اسمي اسمها؟».

«اذاً هذا ما قالته لك! واي سب اعطتك من اجل هذا النفي الاجباري؟».

«الان، وايرين الى جانبها. لم تعد بحاجة لخدماتي، وفكرة انه يمكنني ان اجد عملاً في بيتر سبورغ لم تعجبها ابداً».

«اعتقد انها ايضاً تغار من طريقة معاملة نيقولاس انتما

اصبحنما صديقين اليس كذلك؟».

«ايزعجك هذا؟».

«لا، ابداً، انه قادر على توجيه حياته الخاصة كما يحلو له على شرط ان لا يلطخ اسم عائلتنا طبعاً».

«اذاً، لن ارسل الى موسكو؟».

«الا اذا كنت ترغبين بذلك، لم اكن اريد ان اثير هذه المسألة قبل زفاف قريبتك، لكن بما ان آن استبقت الامور، فأنا مضطر لان افعل، لدي مكان لك وعمل يناسبك، شقيقتي ماشا بحاجة لمرافقة شابة، اعتقد انك تفين بالغرض».

«انا؟ ولكن، لا بد ان لديها العديد من الاصدقاء...».

«ماشا متعلقة باحدهم... وهذه العلاقة ليست مناسبة».

«مع رجل؟».

«بالتأكيد!».

«الهذا السبب هي في مالايفكا وليس البلاط؟».

«نعم، في البلاط، كان من المستحيل علي مراقبتها. اذا كان بقربها شخص اخترته انا من اعواني، سأتمكن من معرفة في كل لحظة في النهار اين تكون ومع من!».

«تريدني ان اتجسس عليها؟» وتراءى لها وجه ماشا المبتسم.

«انا آسفة، سون التس، ولكن لا يمكنني قبول هذا العرض».

«اما هذا واما تعودين الى انكلترا، الا اذا كنت ترغبين بالذهاب الى موسكو، انت لست مضطرة لاعطائي الرد

على الفور، تعرفي اولاً على ماشا قبل قول كلمة لا او نعم».

«لا اتصور ذلك».

«ولما لا؟ هل عرضي لا يحتمل حقاً؟ سيكون لك راتب مرتفع وخزانة ملابس مناسبة... بالمناسبة، لقد قمت بالضروري كي تتمكنين من حضور زفاف قريبتك دون ان تخجلي من نفسك... واعددت لك جناحاً خاصاً. ماشا اخبرتني بما حصل بالنسبة لغرفتك، عندئذ فقط لاحظت ان وضعك بجانب آن لم يعد يطاق».

«كنت قاسية جداً معها...».

«لكنك كنت على حق، فشقيقتي ليس من عادتها المبالغة تصرفها نحوك لا يغتفر».

«اذاً، حياتي مع اختك ستكون مختلفة عن حياتي بخدمة قريبتي؟».

رغم كل شيء عرضه مغر واخيراً ستكون حرة، محترمة...

«كلما اتبعت تعلماتي بحذافيرها، كلما تلقيت معاملة جيدة اريدك ان تكوني صديقة لماشا واعتقد انها تكن لك بعض المحبة شقيقتي مهمة جداً بالنسبة لي، واريدها ان تكون سعيدة».

«ربما. ومع ذلك، تمنعها من لقاء الرجل الذي تحبه».

«انا افضل حكم في هذا المجال، هي لا تزال طفلة ولا تعرف شيئاً في الحب انه شغف مع الوقت».

«واذا لم يزل؟».

حدق الامير للحظات بالارض قبل ان يسألها ببعض السخرية.

«هل سبق ان وقعت في الحب، ايما؟».

هذه اول مرة يناديها بـ «ايما» فاحمر وجهها على الفور.

«لا».

«اذاً اسمحي لمن هو خبير اكثر منك بتخاذ القرار الذي يراه افضل.

اتشعرين بانك اصبحت قادرة على السير، الان؟ حسناً، في هذه الحالة اصعدي الى جناحك الجديد ونامي، سأصدر امراً للخدم كي يحضروا لك كوباً من الشوكولا الساخن مع الفطور» ثم قرع جرساً وطلب من احدى الخادمات ان تهتم بايما. وخرج قبل ان تتمكن من شكره اكتشفت ايما انهم خصصوا لها غرفة مع صالون خاص في نفس الطابق مع قريبتها وجناح ماشا يفصل بين جناحيها، تركتها الخادمة تبدل ملابسها وعادت فيما بعد تحمل لها الافطار. . . لم تستيقظ الا في وقت متأخر بعد الظهر عندما سمعت ضجيج عربة تتوقف واصواتاً مرحة، رفعت زاوية الستارة فرأت ثلاث عربات امام المدخل! نيقولاس ودمتري ادشيف يستقبلان قادمين جدد بينما الخدم ينقلون الحقائب، لا بد انهم ضيوف ينوون الاقامة لبضعة ايام.

كانت تطرز قطعة من القماش عندما سمعت طرقات على بابها.

«ادخل».

«اتمنى ان لا اكون ازعجتك، ولكن دمتري اخبرني

كيف كانت ستدهشك خيله، جئت لاطمئن اذا كانت امورك تسير على ما يرام».

قالت ماشا وهي تدخل وتحمل بعض الملابس».

«شكراً، سمو الاميرة، كل شي على ما يرام، انت لطيفة لتفكري بي» شكرتها ايما وقد تأثرت بفكرة ان تكون موضوع اهتمام.

«ارجوك. نادني ماشا، بكل بساطة، انت تنتمين الى عائلتنا، انا سعيدة جداً بهذا القرار! هنا نمل كثيراً، وسيكون لطيفاً ان نحظى ببعض الرفقة، كما اقترح علي دمتري ان اعلمك امتطاء الخيل».

«اتمنى ذلك، ولكني لا ادري اذا كنت سأنجح في البقاء لاكثر من خمسة دقائق على السرج. . .».

«انا متأكدة انك ستكونين ماهرة، بامكاننا ان نتسلى معاً ونقوم بجولة على المنطقة» قالت ماشا وهي تضع ثوبين على السرير، احدهما من المخمل والاخر من الحرير المطرز.

«ايما. ارجوك، يجب ان يكون لديك ثوب جميل لاحتفال غد! لن ترفضي مرافقتي، اليس كذلك؟» اضافت ماشا متوسلة.

ان تختلط ببقية المدعوين، وتشرب الشمبانيا بصحة قريبتها ولما لا؟ لماذا ترفض عرض الاميرة؟ ستصبح فرداً محترماً من افراد هذا المنزل، وستتلقى راتباً كبيراً. . . .

«هل جرحتك؟» سألتها ماشا بقلق، فابتسمت لها ايما بلطف.

«لا، ابداً... سآتي، شكراً لأنك سمحت لي بان ارفع رأسي عالياً امام اصدقائي».

«يجب ان اتركك الآن ضيوفي ينتظرونني، سأنقل الى دمتري النبأ الجديد. انا اعلم بان هذا سيسعده كثيراً...».

ثم توقفت قليلاً امام الباب واضافت مبتسمة بمكر.

«لست ادري كيف تتمكنين، ولكنك اثرت كثيراً على شقيقي، نيقولاس يعتبرك كشقيقة له، اما دمتري... فهو لم يعد نفسه منذ ان التقى بك، انا ايضاً احبك ايما واتمنى ان تبقي معنا كي نصبح صديقتين».

احمر وجهها من الاثارة وهي تقف امام المرآة فتأملت نفسها بالثوب الذي قدمته لها ماشا، وقد ساعدتها في ترتيب نفسها كاتيا خادمة الاميرة الخاصة، دارت حول نفسها كما كانت ترى قريبتها آن تفعل دائماً، ليس فقط منظرها اصبح مختلفاً، هي تشعر ايضاً بان شخصيتها تغيرت...

عندما نزلت السلالم، التفتت كل الانظار نحوها واحست باحمرار لا ارادي لكونها محط انتباه كل هؤلاء الذين لا تعرفهم، اسرعت ماشا لاستقبالها ورافقتها الى باب الكنيسة، كانت ترتدي ثوباً ازرق رائعاً وتضع عقداً من الزمرد يتلألأ على صدرها، كانت جميلة جداً لدرجة ان ماشا فكرت بان شقيقها على حق لانه يريد مراقبتها ففي سانت بيتر سبورغ لا بد انه لديها العديد من المحبين لكن اكثرهم مخادعون.

«ايما، انت رائعة، اتساءل كيف تكهن دمتري انك ستختارين هذا الثوب بالذات».

«هو... هو قال ذلك؟».

«نعم. هو الذي اختار الثوبين، لكنه كان متأكداً انك ستفضلين هذا اللون».

«انه لوني المفضل واشعر انه يحمل لي الحظ، لكن كيف تكهن بذلك؟».

«دمتري لديه احساس مسبق لكثير من الاشياء ويحتفظ بهذا السر لنفسه».

تبعت ايما صديقتها الجديدة نحو المقاعد المحجوزة للعائلة وقلبها يدق بسرعة كانت الكنيسة تعج بالنساء الانيقات ورجال الطبقة الارستقراطية وكانت خيوط الذهب والفضة على طاولة المذبح والايكونات المقدسة الخشبية المطعمة تلمع متلائمة في وسط الجو الشرقي الرائع.

كيف امكن لدمتري ان يدرك انها ستختار هذا الثوب وليس الآخر؟ هذا السؤال ظل يشغل بالها الى ان التفتت نحو ماشا وهمست في اذنها.

«ماذا اخبرك شقيقك عني في اول مرة كلمك فيها عني؟».

«واخيراً! كنت اتساءل اذا كنت ستتجرأين على طرح هذا السؤال علي يوماً» اجابتها الاميرة الصغيرة بمكر.

«اخبرني بانه رأى فتاة لها شعر رائع وعينان سوداوان كعواصف الشتاء ولها نظرات الملائكة، آه. اذكر ايضاً انه قال بانك كنت تريدين ثوباً بلون القمح تحت اشعة

الصيف. . .».

«ولكن، هذا ذكرها بجملتها اول مرة رآها فيها! ماشا لم تكن تتكلم عن الفندق، الثوب الاصفر الوحيد الذي ارتدته كان لوالدتها من قبل وارتدت فقط في فرنسا عندما رافقت قريبتها، في فرنسا! هناك ايضاً تعرف دمتري لاول مرة على آن اذاً لهذا السبب تعرف عليها بسهولة في ذلك الفندق البائس! كانت آن مشرقة في ثوبها الابيض، الاكمام كانت مزينة بالدنتيل واسفل الثوب ليس سوى سحابة من التطريز والدانتيل، لم تكن آن بمثل هذ الجمال من قبل، انها لحظة المجد ولقد بذلت كل ما بوسعها لتكون في افضل حالاتها».

كانت ايما قد رأتها مراراً تستعمل جمالها ولطفها عندما تريد الحصول على شيء. فتساءلت ماذا يمكن ان تخفي من افكارها خلف ابتسامتها المشرقة التي تخص بها زوجها وهي تمسك يده وتقوده نحو مخرج الكنيسة، عندما مرت امامها، القت آن نظرة نحوهما بابتسامة عذبة لماشا، لكن عندما رأت ايما، لمعت عيناها بالغضب وادارت وجهها بكل تعال.

«انها جميلة جداً» همست ماشا في اذنها بينما كانتا تجلسان في الموكب.

«لو رأيت عيني السيدة تيريز عندما رأت ثوب آن كادت تموت من الغيرة.

«السيدة تيريز؟».

«خاطتي الفرنسية، تعتقد انها الاكثر مهارة في سانت

بيتر سبورغ بحجة ان حاشية الامبرطورة تقصدها دائماً، انت تملكين الكثير من الموهبة، ايما، لن تفتقدي للزبائن اذا، رغبت، ايزعجك اذا طلبت بعض صديقاتي ان تخيطي لهم اثواباً؟».

«سأكون سعيدة جداً ويشرفني ان تثقين بي. . .».

ليت هذا يتحقق! ربما تتمكن قريباً من تحصيل المال، وربما بعد مدة تستطيع ان تؤمن لنفسها خزانة ملابس مناسبة. . .

«يبدو ان الانكليز ليسوا فقط متحفظين، بل متواضعون ايضاً. . .».

صوت الامير دمتري رن خلفها بينما كانتا تدخلان صالة الرقص حيث البوفيه تنتظرهم والخدم يقدمون الشمبانيا، احست ايما باحمرار في وجهها، فادارت وجهها نحوه، لكن عينيه كانتا رقيقتين وهو يتفحصها باعجاب شديد.

«لم اكن مخطئاً، اليس كذلك؟» قال لشقيقه مبتسماً.

«دمتري يعطيني دائماً النصائح حول ملابسي» قالت ماشا وهي تأخذ الكأس الذي قدمه لها.

«لديه ذوق ممتاز ويعرف تماماً ما يناسبني».

«بعض الرجال يشعرون ويهتمون بالجمال المحيط بهم، اتريدين كأساً من الشمبانيا، ايما؟».

كأساً واحداً فقط ارجوك».

الان وقد قبلت كفرد من العائلة، اصبح بامكانه ان يناديها باسمها دون ان يلاحظه احد، لكن فقط لو انه لا يلفظه بكل هذه الرقة المميزة. . .! اخفضت رأسها كي لا

www.elromancia.com

يلاحظ احد ارتباكها، فهي ليست سوى مرافقة اميرة ادشيف مع انها بدأت تشعر باوهام العظمة التي طالما لامت قريبتها آن عليها، يجب ان تبقى في مكانها، لا يجب ان تستسلم للاحلام فقط لانه لطيف معها.

«كنت اعتقد ان جلالتها ستكون هنا» قالت ماشا ببعض الخيبة.

«القليل من الصبر، يا شقيقتي الصغيرة، الثلج يتساقط منذ اكثر من اربع وعشرين ساعة، ورغم جهود الرجال الذين امرتهم بفتح الطرقات الا انها لا تزال سيئة، لديك ضيوف آخرون ويجب ان تقومي نحوهم بواجب الضيافة» اضاف دمتري مبتسماً.

«نعم، انت على حق، ستنبؤني فور وصولها، اليس كذلك؟».

«صغيرتي العزيزة، عندما ستدخل كاثرين الى الصالون، بامكانك ان تتأكدي من ان الجميع سيعلمون على الفور» اجابها دمتري ممازحاً.

احست ايما بقلبها يعصر من الالم ولاحظت باية الفة يتكلم عن الامبراطورة ربما كانت الشائعات التي تدور حول علاقتهما صحيحة، عشيق القيصرة؟ ولما لا؟ انه وسيم وبامكانه ان يلفت انتباهها...

«يبدو وكأنك شفيت من حادث امس المؤسف».

كانت عيناه غارقتين في عينيها ولاحظت بارتباك كبير انها كانت شاردة ولم تنتبه اليه وهو يحدق بها منذ بعض الوقت.

«نعم. الآن افضل، كنت غبية في تسرعي الى خارج

المنزل كما فعلت اتمنى ان لا تعتقد انني دائماً طائشة. ولكني...».

«لو اعتقدت ذلك للحظة واحدة، هل كنت سأطلب منك ان تكوني مرافقة ماشا؟ حسب الظروف، كنت معذورة واعتقد انه من الافضل ان تنسي ذلك الحادث تماماً».

في الطرف الاخر من صالة الرقص، كانت الطاولات الطويلة مغطاة بشراشف بيضاء وتنوء بما عليها من المقبلات الشهية المنوعة التي لا تنتظر سوى اشواك المدعوين بالاضافة للشمبانيا والنبيذ.

«لا بد انك بدأت تشعرين بالجوع، تعالي لنرى عن قرب ماذا اعدوا من طعام».

وبحركة سريعة، امسك ذراعها وقادها نحو الطاولات، بينما كانت ايما تشعر بنظرات الفضوليين من المدعوين المنصبة على ظهرها، بدون شك كلهم يتساءلون عن هذه الفتاة التي برفقة الامير دمتري ادشيف الذي يبدي اهتماماً ملحوظاً بها.

تناولت طبقاً من الفضة عليه قطع من اللحم مع شوكة وسكين من الفضة ايضاً المحفور عليها رمز ادشيف.

«لقد فعلت كل شيء كي تذكر آن هذا النهار طوال حياتها» تمتمت ايما وهي تتذوق الطعام.

«هل ستذكرينه انت ايضاً؟».

«نعم! لولا تفهمك ولطف شقيقتك، لم اكن لاتمكن من الحضور، اعتقد انك تعرف كم انا ممتنة لك...».

«انا لم افعل شيئاً» قاطعها الامير وعقد حاجبيه.

«انا لا اطلب، لا ابالغ في مصداقيه من اتعامل معهم، الان وقد كان لديك وقت للتفكير بعرضي، اريد جواباً واضحاً ومحدداً».

لم يكن بامكانها التراجع، يجب ان تتخذ قراراً وترتبط ربما للابد مع آل ادشيف، لو كانت صادقة مع نفسها لاعترفت بانه ليس صداقة ماشا ولا رغبتها في البقاء الى جانب الرجل الذي يراقب ترددها بنفاذ صبره.

«الجواب هو نعم، سون التس».

«واخيراً وجدت هذه الفتاة المتعلقة المتزنة التي التقيت فيها لاول مرة في ذلك الفندق المهجور...».

«هل كانت هذه حقاً المرة الاولى، سيدي؟».

«انت تكلمت مع ماشا، اليس كذلك؟».

«لم تكن تعلم انني كنت اجهل كل شيء عن اللقاء الاول».

«الانطباع الاول هو المهم وانا افضل دائماً ان اكون فكرة عن الشخص عندما لا يكون مدرك انه مراقب، نتعلم دائماً في الكثير من خلال النظر صامتين، اذا بقيت في روسيا، لا تنسى ابداً هذه النصيحة انظري حولك. اسمعي، ولكن لا تتكلمي الا عندما يكون لا يمكنك ان تفعلي غير ذلك، الأشهر والسنوات القادمة قد تكون مضطربة وربما خطرة لمن لا يعرفون كيف يحفظون السنتهم».

كان وجهه حازماً وعيناه اتخذتا فجأة لمحة باردة، أكان يريد ان يكلمها عن النزاع المفتوح بين القيصر الجديد

والامبرطورة؟ ربما هو بخطر لانه معروف بأنه من المقربين الى القيصرة او من خلال اشخاص..

«هل تصالحت مع آن؟».

«ليس بعد».

«اذاً، يجب ان تفعلي على الفور، اريد ان تتوقف هذه المواقف بينكما، يجب عليها ان تقبل بامر بقائك هنا وبكل ارادتها، ها هي تتجة نحونا، لنستغل الفرصة وننهي هذه المسألة بشكل نهائي» بالفعل كان العريسان يتجهان نحوهما، فقام دمتري ببعض الخطوات باتجاههم ليقبل زوجة اخيه على خديها.

«انت مشرقة، يا عزيزتي آن كنت اقول لايما بانك اجمل النساء اما انت يا عزيزي نيقولاس، افترض بانك اكثر الرجال سعادة هذا اليوم».

شد دمتري بمحبة على يد شقيقه، وادركت ايما متانة العلاقة التي تجمع بين الشقيقين، بينهما صداقة وتفهم يفوق اواصر الدم والقرابة، احست بذلك مرات عديدة وخاصة عندما يتكلم نيقولاس عن شقيقه الاكبر، اما دمتري، فكان يتأمل العريسين باعتزاز كبير وبنظرات تدل على عمق مشاعره نحوهما.

التفت الأمير دمتري نحوها وفهمت انه ينتظر منها ان تقوم بالخطوة الاولى.

«ايمكنني ان اسمح لنفسي بتهنئتكما؟ اتمنى ان تكوني سعيدة جداً، عزيزتي آن».

لكن قريبتها لم تجبها بل اكتفت بان رمت نظرة احتقار

وقبلتَ رغماً عنهاقبلة سريعة منها وادارت وجهها على الفور بازدراء.

«تهاني سمو الامير».

شد نيقولاس على يدها بابتسامة حارة، وكرد على موقف زوجته، انحنى ليقبلها باحترام.

«انا سعيد جداً لذلك شرفتنا بقبول دعوتنا، يا قريبتي العزيزة اخبرتني ماشا انك ستبقين اخيراً معنا!».

«ستكون ايما من الان وصاعداً مرافقة شقيقتنا» تدخل دمتري عندما تأففت آن.

«حان الوقت لنمنح ماشا القليل من الحرية، تحت مراقبة شخص جدير، لن اخشى ان تقع بحب اول قادم».

في هذا الوقت، كان الموسيقيون قد اتخذوا اماكنهم، وما ان بدأوا بالعزف حتى توقفت كل الاحاديث والتفت الجميع نحو العريسين تدلت ملامح آن على الفور، ووضعت يدها مبتسمة على ذراع نيقولاس وقالت له بصوتها العذب.

«الجميع ينتظر ان نبدأ الرقص، يا عزيزي».

حبست ايما انفاسها امام هذه الملاحظة الطائشة، كانت تعلم جيداً ان نيقولاس مع عجزه لن يقترب ابداً من حلبة الرقص!.

«ليحملك الشيطان!» تمتم بصوت حاد مخنوق.

الامرأة التي يحبها والتي سيمنحها كل شيء، هي التي في يوم زفافهما لا تقاوم ميلها لاهانته امام اصدقائه!.

«دمتري، بما ان نيقولاس يرفض مراقصتي، فأنت من سيفعل الجميع ينتظرون، ليس لان زوجي غير قادر على تحمل عجزه علي ان اخيب املهم».

«ستكتشفين قريباً ان نيقولاس اقوى مما كنت تعتقدين، يا عزيزتي» اجابها دمتري بابتسامة جافة وهو يمسك يدها.

على الفور تبعهما الكثيرون طوال السهرة كانت آن ترقص دون ان تهتم بنيقولاس التعيس الذي اضطر للبقاء وحيداً في زاويته يشرب الكأس تلو الأخر ليحاول ان يتغلب على همومه.

عندما بدأت الفرقة الموسيقية تعزف اللحن الخامس، لم يعد بامكان ايما تحمل هذا المشهد طويلاً وخرجت من الصالة. لقد نجحت آن في اذلال زوجها امام كل اصدقائه، لن تلوم الا نفسها اذا حصل اي خلاف، فنيقولاس ليس رجلاً يهان دون ان يقوم باية ردة فعل.

عند مرورها امام غرفة المكتبة، سمعت ايما صوت امرأة حاد يدل على انها غاضبة ثم سمعت صفعة قوية.

«اخرجي!».

على الفور. فتح الباب وخرجت خادمة راكضة ووجهها مبلل بالدموع واثر الصفعة بارز على خدها.

كانت امرأة تقف امام المدفأة ولا تزال ملتفة بمعطفها الفرو دخلت ايما مترددة فتأملتها عينان كبيرتان زرقاوان بتعال.

«ولكن. انت ترتجفين! ايمكنني ان افعل شيئاً لك؟ ربما ترغبين بكوب من الشاي او النبيذ؟» اقترحت عليها

ايما وهي تساعدها في خلع معطفها.

«اريد كأساً كبيراً بورتو دمتري الممتاز» قالت الامرأة بلهجة الامر.

اضافت وهي تشير الى صندوق من الخشب القديم، يبدو ان هذه الامرأة لا تزور قصر المالا يفكا لاول مرة، كانت جميلة جداً ترتدي ثوباً من المخمل الازرق، لكن ايما لاحظت على الفور انه ممزق فوق صدرها.

«لهذا السبب صفعت هذه الخادمة الحمقاء، هذا الثوب اعددته خصيصاً لزواج نيقولاس!».

«ايمكنني ان ارى؟» اقترحت ايما وهي تتفحص القماش المخملي بيدها. انه ليس صعب التصليح انا متأكدة انه بامكاني بقليل من الصبر ان اعيده اليك جديداً».

في هذه اللحظة، فتح الباب ودخل الامير دمتري واغلق الباب وراءه قبل ان ينحني امام الامرأة المجهولة دون ان يلاحظ وجود ايما.

«لا بد ان الرحلة كانت متعبة! قالوا لي بانك غادرت منزلك في الساعة الرابعة...».

«وارغب في ان اقضي الاربعة ساعات القادمة امام النار معك مع افضل ما تحتويه قباءك، يا عزيزي، لدينا اشياء كثيرة نبحثها معاً هل تم الزواج كما يجب؟».

«العروس صعدت الى غرفتها منذ قليل».

«امر مؤسف! كنت اريد رؤية الجميلة التي اخترتها لشقيقك، على كل حال، سأراها غداً، اذا كانت غرفتي جاهزة، سأصعد على الفور تعالى وانضم الي بعد ساعة،

عندما تكون اعصابي قد هدأت، هذه الفتاة كانت لطيفة جداً معي» اضافت ملتفتة نحو ايما.

«انها الانكليزية الاخرى التي كلمتك عنها» قال دمتري.

«جلالتك اتسمحين لي بان اقدم لك الانسة ايما نرازر؟».

احمر وجه ايما ووقفت بكل احترام بينما القيصرة تنظر اليها بمرح، الامبرطورة بنفسها تكلمها! وهي تجرأت على تقديم النصيحة لها...

«لقد اربكت هذه الفتاة الجميلة، دمتري، عندما دخلت كانت تقول لي بانه سيكون من السهل عليها اصلاح هذا الثوب واعتقد انني سأمنحها هذه الفرصة لتريني ماذا يمكنها ان تفعل».

«سأفعل كل ما بوسعي كي تكون جلالتك راضية عن عملي» تمتمت ايما بخجل.

«حسناً سنرى».

رن الامير دمتري جرساً فدخل خادم دون ان يظهر دهشة امام الامبرطورة التي سيارفقها الى جناحها، يبدو ان الامبرطورة معتادة على زيارة هذا القصر! صعدت الامبرطورة بالسلم الرخامي باجلال، يتبعها خادمان وثلاثة خادمات يحملنى امتعتها.

لقد التقت ايما بالامرأة الاقوى في كل روسيا! على الفور، احست بقوتها وارادتها، ليس هناك ما يدهش من قوة نفوذها على كبار الضباط والاقطاعين كالامير ادشيف الذي لا يزال الى جانب ايما.

«ستكون آن سعيدة جداً لان جلالتها اتت رغم حالة الطقس لتحضر زفافها...».

«ستعلم غداً» قاطعها دمتري بحدة.

«لست مضطرة للاهتمام بقريبتك بعد الان لقد اصبحت تحت مسؤوليه زوجها، واتمنى ان تكرسي كل طاقتك لعملك كمرافقة لشقيقتي ماشا، عودي اليها ولا تتركيها حتى تعود الى جناحها».

ثم تركها وصعد السلم بينما رعشة باردة انتابت قلب ايما التي كانت لا تشك بالمكان الذي سيذهب اليه...

كانت الساعة تشير الى الرابعة صباحاً عندما دخلت ايما الى غرفتها لتنام بعد ان تركت ماشا بامان في غرفتها، نامت نوماً عميقاً حتى العاشرة وعندما استيقظت، رأت فتاة ترتب ملابسها التي تركتها بشكل فوضوي على الكرسي.

«فتحت ايما عينيها وهي لا تصدق، خادمة! ولها وحدها! يبدو ان عملها الجديد سيقدم لها حوافز لم تكن تنتظرها.

«نعم، شكراً هل استيقظت الاميرة ماشا او قريبتي؟».

«الساعة الان العاشرة. آنستي، لاحد يستيقظ قبل الظهر، باستثناء السيد دمتري الذي امتطى جواده منذ السادسة صباحاً».

«حسناً، شكراً، بامكانك ان تاتيني بالفطور».

ثم نزلت من سريرها وسكبت الماء البارد في وعاء وغسلت وجهها ودلكت جبينها جيداً، لم تكن قد شربت سوى كوبين من الشمبانيا ليلة امس، ومع ذلك تشعر بصداع قوي.

لم تكن ماشاقد توقفت عن الرقص طوال السهرة، ايما نفسها لاقت ايضاً نجاحاً كبيراً، لكنها لم تنجح في تسلية نفسها. ليس بامكانها الان ان تزيف الحقيقة، انها مغرمة بدمتري ادشيف! كل تعلقها لا ينفع... انها تشبه والدتها كثيراً، وكأنها مثلها ولدت لتحب رجلاً واحداً، باخلاص ووفاء حتى آخر يوم من عمرها هذا الاكتشاف لا يريحها ابداً.

كانت تسرح شعرها عندما حملوا لها ثوب الامبرطورة، تفحصت المكان الممزق من جديد وتوسلت الى الله كي لا تكون قد اخطأت عندما اكدت لامبرطورة انه بامكانها اصلاحه بسهولة، وبدأت بالعمل عليه بدون تأخير، كانت تعمل منذ ساعة تقريباً على اصلاحه عندما فتح باب غرفتها بعنف واسرعت آن بالدخول ووجهها مبلل بالدموع، على الفور نست ايما قريبتها وسألتها بقلق.

«آن، ماذا حصل؟».

«اكرهه!» صرخت وهي تجهش بالكباء.

«اتسمعينني؟ انا اكرهه!».

«الامير نيقولاس؟ لماذا؟ ماذا فعل؟».

«لا، ليس نيقولاس، بل دمتري... انه فظ، مستبد...».

«اجلسي واروي لي كل شيء» قالت لها ايما بهدوء.

«اتعلمين ما قال لي لتوه؟ نحن لن نعيش هنا في مالايفكا! هذا المنزل هو له فقط، كونه كبير العائلة، ورث كل شيء بعد وفاة والده! نيقولاس لا يملك شيئاً غير منزل

وبعض الاراضي على بعد ستة كيلومترات من هنا، ويحصل على ايراد شهري يخصصه له دمتري».

«الهذا اهمية كبرى بالنسبة لك؟ هكذا، نيقولاس وانت ستتعلمان كيف تتعرفان على بعضكما اكثر بعيداً عن نفوذ دمتري اعتقد ان هذا لن يكون شيئاً».

«كيف تجرأين على قول ما هو جيد بالنسبة لي؟ انها كالصحراء هناك، لا اصدقاء، لا زيارات، لا شيء...».

«ولكن، اذا كانت لا تبعد سوى كيلومترات من هنا...».

«هذا لا يهمك، اليس كذلك؟ وكيف لا؟ انت تعتقدين انه يجدك جذابة؟ حسناً، انت مخطئة تماماً!».

«لست ادري عما تتكلمين».

«اوه، تتظاهرين بالبرأة! ولكن ليس لانه اهتم بك مرة يجب ان تتصوري بان رجلاً مثله يقع في الفخ الذي تنصبينه له. فقط لو تمكنت بالامس من رؤية نفسك، تتباهين وتتبخرين ك... كعاهرة حقيقية! اخبرتني ماشا من اين جاءك ثوبك ومن طلب من ماشا ان تكون كريمة معك، والدتي طالما حذرتني من اخلاقك السيئة، تماماً كوالدتك...».

«ايمكننا الدخول؟».

- ٢ -

كان الامير دمتري وماشا يقفان امام الباب عندما رأتهما، تمنت ايما لو تنشق الارض وتبتلعها، يبدو انهما سمعا كلمات آن المليئة بالاحتقار. وماشا تبدو على وشك البكاء بينما الابتسامة التي على شفتي دمتري تخفي غضباً كبيراً يلمع في عينيه، «ستكون عربتك جاهزة بعد ساعة تقريباً».

«بالتأكيد، لا يزال هناك الكثير من العمل!» قالت ماشا بهدوء ثم ابتسمت لايما واضافت.

«جئت لاقول لك انني سعيدة جداً بقبولك البقاء هنا».

عقدت آن حاجبيها وخرجت من الغرفة واصدمت بماشا اثناء تسرعها.

«يا الهي اعتقد انني ذهبت بعيداً قليلاً!» قالت ماشا

www.elromancia.com

وخرجت راكضة خلف زوجة اخيها.

«ماشا هي عادة طفلة رقيقة، لكنها احياناً تنطق بما تفكر به بشكل مفاجىء، اعتقد انها ورثت مزايا والدنا»

«الاميرة ليست طفلة. انها شابة الان».

«وهذا يعني؟» سألها وهو يرفع حاجبيه.

«انها تعيش هنا بشكل... معزول، انها بحاجة لبعض الرفقة ممن هم في مثل سنها، اذا منعت حريتها، قد تثور يوماً على تسلطك».

«وتهرب مع الرجل الذي تختاره رغم رفضي؟ لن تفعل ذلك ربما تكون ماشا اكثر عناداً من عشرات من اقاربك مجتمعات!».

«انها اكثر من صديقة تحتاج لبعض الرفقة».

«اذاً، كوني صديقتها ولكن لا تتركي هذه الصداقة تطغى على واجبك ومصداقيتك نحوي، على كل حال، انا من يقرر ما هو جيد بالنسبة لها».

«كما فعلت مع آن دون حتى ان تطلب رأيها! ربما كان بامكانك ان تتصرف بتسرع اقل».

«سيكون لديها منزل جميل وخدم وزوج يعبدها رغم عيوبها، يجب الان ان تعيش حياتها مع نيقولاس، اعتمد كثيراً عليك، البعد سيكون جيداً لها».

«الا تعتقد انك تولي الكثير من الاهمية لعلاقتنا؟».

«قريبتك امرأة جميلة وحسابية، لن تتأخر في استغلال وضعها الجديد، لا تقلقي، بعد ايام قليلة ستنسى كل شيء تماماً».

لم يكن بامكان ايما ان تنفي صحة رأيه بقريبتها، لقد استغلتها كثيراً وهي تعرف ذلك جيداً، ولكن هذا لا يمنع من ان تكون كلماته جارحة.

«هل انت راضية عن مسكنك الجديد؟» سألها مغيراً الموضوع.

«نعم، اشكرك».

«واوشكا؟ اشتريتها منذ اسبوع فقط، لكنها تبدو لي طيبة».

«اشتريتها؟ كعبدة؟ هذا فظيع! ولكنها لا تتعدى الخامسة عشرة! اين هم اهلها؟».

«ليس لدي ادنى فكرة عن عمرها، وانا متأكد انها ستعرف كيف تتصرف اذا سألوها عن والديها» اجابها بتسلط ولا مبالاه وعقد ذراعيه واستند على الجدار مما اثار نفور ايما.

«أجد من غير المناسب ابداً انه يمكن لكائن بشري ان يبقى طوال حياته ملكاً جسداً وروحاً لانسان اخر».

«هيا، انت تقارنينا بالمستعبدين! تذكري مواطنيك الانكليز فهم اكثر قسوة منا، ليس عليك سوى ان تتذكري الاف الاسكتلنديين الذين نقلوا الى العالم الجديد بعد فشل شارلز ستورات عام ١٧٤٥ اتعتقدين انهم كانوا يعاملون جيداً هناك؟».

«اعلم» اعترفت ايما رغماً عنها فوالدها ايضاً لو عاش، لكان جزءاً من هؤلاء الذين بيعوا بالمزاد في فرجينيا او غير هذا ليس سبباً كي اوافق على عدم العدالة والمساواه التي

www.elromancia.com

رايتها في هذا البلد».

«اذاً انت تعارضين العبودية؟ مادا سيحل اذاً بكل هؤلاء المعتقين؟ معظم الخدم في هذا المنزل ولدوا على اراضينا كآبائهم واجدادهم انه هنا منازلهم».

«لم يمنحهم احد حرية الاختيار!» اجابته بتحد.

«آنستي، اجد ان نقاشنا مثير، لكن يجب ان اترك اسئلتك معلقة الان، قريبتك سترحل قريباً، اقترح عليك ان تذهبي لوداعها وتجنبي تكرار المشهد الذي رايته رغماً عني منذ قليل».

«كما تشاء، سموا الامير».

اتجه الامير نحو الباب لكنه قبل ان يخرج ادار وجهه نحوها واضاف.

«انت قوية، آنستي، لكن في المرة القادمة عندما نعلن النار، اؤكد لك انك لن تخرجي منها بمثل هذا الانتصار السهل».

كان نيقولاس وآن في البهو يوشكان على الرحيل الى بلمايا، لم تكُن ايما ترغب بان يحضر دمتري مشهداً جديداً بينها وبين آن، واحست براحة عندما رأت قريبتها قد هدأت نسبياً، هل نجح نيقولاس او بالاحرى دمتري في اقناعها بان حياتها في بلمايا ستكون مثالية؟.

بعد بضعة اسابيع، عندما تجدآن الوقت لتنظيم كل شيء حسب ذوقها ستقيم حفلاً راقصاً ستكونين من بين المدعوين، طبعاً» قال نيقولاس وهو يبتسم لايما بكل لطف».

«يسعدني ذلك، سون التس».

«ماشا ستأتي لشرب الشاي معنا الاسبوع القادم، سترافقينها بالتأكيد» اضافت بتعال وتعجرف.

هذا كان اشبه بالأمر منه الى الدعوة، لكن ايما اكتفت بأنها هزت رأسها.

«سأكتب للورد واللايدي تاران لاقول لهم بان كل شيء سار على ما يرام وانك ستكتبن لهم بنفسك عندما يسمح لك وقتك بذلك».

لاحظت ايما ان دمتري عقد حاجبيه، لكنها لا تعلم لماذا قد يكون لديه مانع، لا بد ان والداي آن قلقان جداً وينتظران سماع اخبارها. سترسل لهم رسالة بأذن او بدون اذن.

طبعت آن قبلة سريعة على خد ايما وقبلة اخرى حارة على خد ماشا وتبعت أيرين الى الخارج حيث تنتظرهم عربتان، بينما انهى نيقولاس توديع شقيقه وشقيقته.

صعدت ايما الى غرفتها وتابعت عملها على اصلاح ثوب الامبرطورة، عندما انتهت منه، استنتجت براحة كبيرة ان النتيجة توازي تعبها وان القسم الممزق من الثوب لم يعد ظاهراً ابداً.

اندشكا التي كانت تراقب عملها باعجاب وحماس، اثنت على النتيجة وابدت رغبتها بتعلم الخياطة فوعدتها ايما بان تعطيها بعض الدروس.

بعد دقائق، كانت تدق على باب غرفة الامبرطورة وقلبها يدق بسرعة امام فكرة ان جلالتها ستحكم على عملها،

فتحت لها خادمة الباب ورمتها بنظرة باردة وقالت لها بجفاف.

«عودي فيما بعد! جلالتها لا تريد ازعاجاً في هذا الوقت».

«من هي اللايدي؟» سألتها الامبرطورة من الخلف.

«انها خادمة تحمل ثوب جلالتك».

سمعت ايما صوتاً رجولياً يتدخل وبعد لحظة، فتحت لهاالخادمة الباب واشارت لها بالدخول.

كانت القيصرة ترتدي ثوباً من الستان وتجلس على الصوفا بينما يجلس دمتري قرب المدفأة ويحمل كأساً من النبيذ بيده.

«انت ايما، اليس كذلك؟ تعالي اذاً لترين عملك، انا بغاية الفضول لارى اذا كنت تعملين كما قيل لي عنك» امرتها كاترين وهي تشيد اليها بالاقتراب.

الامير وضع رجلاً على رجل، وسكب لنفسه كأساً آخر، بينما ايما تقدم للامبراطورة نتيجة جهودها، كان دمتري يبدو مرتاحاً اكثر منها.

احست ايما بانقباض في قلبها، لم يعد لديها اي شك في علاقته بالامبراطورة... يبدو ان الشائعات كانت صحيحة.

«لقد نجحت، يا عزيزي دمتري، انها ممتازة، لكنني هذه المرة لست نادمة ابداً» وتحسست باصابعها المكان الذي كان ممزقاً واضافت باعجاب.

«رائع حقاً! قيل لي بانك ستبقين اخيراً في خدمة

الادشيف، يسعدني ذلك، اصطحبها الى قصري دمتري، في المرة القادمة التي تزورني فيها، ولا تدعني انتظر طويلاً».

«هل سبق ان جعلتك تنتظرين، جلالتك؟» قال الامير بمرح بينما الامبراطورة تنظر اليه بطرف عينها وابتسامتها الساخرة على شفتيها.

«يسعدني ان جلالتك راضية عن عملي».

«اكثر من راضية، آنسة، تفضلي، خذي هذا كبدل لاتعابك».

تأملت ايما بدهشة الخاتم الالماسي الذي خلعته الامبراطورة من اصبعها، ثمن لاتعابها! لكنها لم تطلب ثمناً، ولم تكن تنتظر شيئاً من اجل هذه الخدمة التي قدمتها للامبراطورة عندما وثقت بها وسلمتها ثوبها.

«خذيه» تمتم دمتري وهو يرى ترددها.

«لكنه كثير من اجل عمل سهل كهذا! لقد تشرفت لانني استطعت ان اكون في خدمة جلالتك».

«انها مميزة! تعجبني شخصيتها» قالتالأميرة وهي تنهض وتضع الثوب الذي اصلحته ايما في ذراعيها.

«خذيه انه لك!».

لم تجرؤ ايما على الرفض مرة ثانية واتجهت متراجعة نحو الباب.

جلست القيصرة على الصوفا ولاحظت ايما بدهشة كبيرة انها حامل، من من بين عشاقها من هو الوالد هذه المرة؟ تساءلت ايما وهي تغادر الغرفة ولكنها في قرارة نفسها كانت

تعلم جيداً انها لاتتمنى معرفة الجواب.

الحياة في مالايفكا كانت تدور بشكل لطيف لكن دون الكثير من الحركة، الطقس سيء، وكل يوم يزداد ملل ماشا خاصة في هذه العواصف التي تمنعها من التنزه على صهوة جوادها الذي يشكل وسيلتها الوحيدة للترفيه عن نفسها في الريف.

مرتين، ذهبوا الى بلمايا حيث استقبلهم نيقولاس وآن بلطف كبير، بيدو وكأن آن اعتادت على وجودها الجديد، لكن ايما شعرت ان سعادة آن الظاهرة تخفي حقيقة مختلفة.

مع شهر شباط، بدأت اوائل الازهار ترتفع من خلال الثلج ووصلت رسالة تعلن ان الامبراطورة تنوي الانتقال مع كل حاشيتها الى القصر الصيفي في بيتر هوف مع بداية الشهر القادم، هذا يعني ان فترة الحداد التي التزمت بها بعد موت اليزابيت بيروفنا اوشكت على نهايتها.

امام هذا الخبر، تبدل مزاج ماشا على الفور وبدأت باختيار الملابس التي ستحملها معها الى البلاط، بنفس الاسبوع، تلقوا دعوة من نيقولاس لحضور حفل الرقص في بلمايا الاسبوع القادم.

«متى موعد قياسك الاخير مع السيدة تيريز؟» سأل الامير دمتري.

ذات مساء شقيقته التي كانت تتحدث مع ايما عن ثوب تخيطه لها تيريز.

«غداً، لن ارتدي اجمل منه! ايما بنفسها اختارت لي

القماش وقدمت بعض الملاحظات للسيدة تيريز».

«انا متأكد انك ستسحرين الجميع في حفل ان ونيقولاس الراقص! ولكن بما ان السيد تيريز تعمل لك في هذا الوقت، اعتقد انه بامكانك ان تسأليها اذا كان لديها متسع من الوقت لتعد بعض الملابس لايما».

«ولكن لدي ما يلزم» اعترضت ايما وشحب وجهها قليلاً.

«انت تعلمين جيداً مثلي ان هذا ليس صحيحاً» اجابها دمتري بهدوء.

«هل نسيت انني سأقدمك قريباً الى قصر الامبراطورة، ستلومني جلالتها الى الابد اذا تركتك تذهبين اليها بهذه الملابس».

«كما تشاء» وافقت ايما بدون اعتراض.

اذاً الامبراطورة لا تزال ترغب برؤيتها! حتى الان، كانت تعتقد ان هذه مجرد دعوة لن تتحقق خاصة وان دمتري لم يحدثها عنها ابداً فما بعد، بالتأكيد هي بحاجة لملابس انيقة لهذه المناسبة وللسفر، فجأة لاحظت ان الامير ينظر اليها مبتسماً فارتبكت كثيراً، بدون شك، يعتقد انها ستستغل عرضه الكريم كما كانت تفعل آن.

«اصر على ان ادفع بنفسي كلفة ملابسي».

«من عادة سيد مالايفكا ان يقدم الملابس والغذاء لناسه، ولكن اذا كان هذا يهدىء بالك، سأحسم جزءاً كل شهر من راتبك ايناسبك هذا الحل اكثر؟».

«نعم شكراً».

www.elromancia.com

على الفور غير دمتري الموضوع واعلن لهما ان منزل سانت بيتر سبورغ سيكون جاهزاً لاستقبالهم في اول نيسان عندما سمعت ماشا هذا الخبر، شحب لونها وقالت بيأس.

«اوه لا، دمتري، ارجوك، اليس لديك قلب؟ انا لا ارغب بالعودة لرؤية صديقاتي، جوليا، اميرة مياغكي، بولا بيتر نسكي...».

«وفاسيلي زوروف، بدون شك؟».

فهمت ايما ان هذا اسم الرجل الذي تسبب بنفي ماشا، لأن هذه الاخيرة بدت فجأة وكأنها تلقت صفعة قوية ونظرت الى اخيها نظرة ملؤها الغيظ.

«حتى الان، وانا دائماً اتصرف كما تطلب مني، لم اكتب له ولم اتلق منه اية رسالة منذ مجيئي الى ماليفكا في شهر آب الماضي».

آب! هذا يعني انها هنا منذ ستة اشهر تقريباً، بعيداً عن صديقاتها والشبان الذين من عمرها، كيف يمكن لاخيها ان يكون غير حساس نحو فتاة اصبحت شابة فاتنة؟ بعد كل ما بذله من اجل سعادة نيقولاس، لماذا كل هذه القسوة نحو شقيقته التي تحتاج ليس فقط لحبه وحمايته بل ايضاً لتفهمه.

تلألأت الدموع في عينيها، واعتقدت ايما بانها على وشك الثورة على شقيقها لكنها فضلت النهوض والانسحاب الى غرفتها، لم تستطع ايما البقاء اكثر مع دمتري بدورها، لكن دمتري استوقفها.

«قبل ان تحكمي علي، انتظري لتعرفي كل شيء».

«الا يحكم عليك ضميرك حتى الان، سيدي؟» سألته دون ان تفكر بانها تتوجه بكلامها الى سيد ماليفكا.

شد قبضته دمتري على كأسه وتساءلت ايما اذا كان سيرميه في وجهها.

«انضمي اليها، ستكون بحاجة لك» قال بجفاف وحدة.

قبل ان تغلق الباب خلفها، رمت ايما نظرة خلف كتفها، كان يبدو فجأة وحيداً معذباً، ورغم عنها، احس بموجة حنان تنتابها هذه اول مرة تدرك فيها ان الامير الغني القوي دمتري ادشيف ليس في نهاية المطاف سوى كالاخرين ولكنه رجل وحيد.

بعد ظهر اليوم التالي، لم يكن مزاج ماشا قد تحسن بعد، عندما دخلت بطريقة غير متوقعة الى غرفة ايما، كانت لا تزال حزينة لانه يجب عليها البقاء لمدة ستة اسابيع اخرى في ماليفكا.

انها المرة الاولى بالنسبة لدمتري، فكرت ايما على الفور، لكنه بالتأكيد سيربح المعركة، لكنه سيخسر بالتالي احترام وحب شقيقته.

كل شيء مرهون بمعرفة اذا كان فاسيليب زوروف هذا مهم لدرجة تجعلها تجرأ على مواجهة دمتري وخسارتها المؤكدة لكل ميراثها.

تنهدت ايما وتأملت الاثواب التي كانت قد وضعتها على سريرها، لم تكن قد قررت اي ثوب سترتدي في حفلة الرقص عند آن ونيقولاس.

«اي ثوب اختار؟» سألتها ايما محاولة ان تغير افكارها قليلاً.

«انا احب الازرق، انه الثوب الذي اهدته اليك الامبراطورة؟».

«نعم انه رائع، ولكن... ولكني لا اجرؤ على ارتدائه» تمتمت ايما واحمر وجهها.

«ستكونين مقنعة، لن يتمكن احد من معرفتك» قالت ماشا بنظرة مكر، فكري بالرجال الذين سيحومون حولك اعتقاداً منهم انك سيدة غنية مرموقة من سانت بيتر سبورغ».

ثم لاحظت ان ايما انزعجت من هذا الكلام، فاضافت ممازحة.

«لن تتخلي عن كل هذا النجاح فقط خوفاً من ان لا تعجبي شقيقي».

احمر وجه ايما اكثر وتركت الثوب الذي كانت تمسكه، ليس من عادة ماشا ان تتكلم هكذا، هل جرحها دمتري بشكل اعمق مما كانت ايما تعتقد؟.

«اوه، انا آسفة!» قالت ماشا نادمة ورمت نفسها بين ذراعي ايما بمحبة.

«انت تسامحينني اليس كذلك؟ انت تعلمين، ايما، انا لست سوى سجينة هنا، دمتري القاسي اجبرني على البقاء هنا طوال الصيف ليلقني درساً، يصبح فظاً اذا عارضه احد، خاصة اذا كان من يعارضه فتاة ضعيفة، بالنسبة له بنات الجنس اللطيف لم تولدن الا لتطعن ولتكونن

جميلات وتنجبن الاطفال، ولكن انا ارفض الزواج من الرجل الذي سيختاره لي دون ان يطلب حتى رأيي، وارفض ان اكون اماً لعائلة حتى قبل ان اعلم انني لم اعد طفلة».

«صدقيني ماشا، لا احد يرفض الاعتراف بانك اصبحت شابة الان».

«انا في السادسة عشرة فقط من عمري، نيقولاس ودمتري يعاملاني دائماً كأني طفلة صغيرة».

«اعتقد انه ليس من السهل بالنسبة لهما ان يلاحظوا انك كبرت فهما يهتمان بك منذ مدة طويلة، واحيانا يكون الاخ غيوراً اكثر من الزوج او الحبيب».

«فقط لو ان هذا صحيح، لكني لا اتمكن من تصديق ذلك، دمتري يخشى فقط ان الوث اسم ادشيف، هو يمنعني من القيام بما اريده، بينما هو لا يزعج نفسه وسط كل النساء اللواتي يرغب بهن، بما في ذلك الامبراطورة نفسها».

«انت تريدين ان يحترم دمتري مشاعرك نحو فاسيلي رزورف لانه هو ايضاً كائن من لحم ودم وان لا يرفض الحقوق التي تطالبين بها لنفسك، ولكن يجب ان تدركي ايضاً ان الظروف ليست نفسها ابداً».

«من لحم ودم؟ احياناً اتساءل... كلميني عنه، ايما، اشعر انك تعرفينه اكثر مني، حتى الان، لم يتجرأ احد على مخاطبته كما تعرفينه اكثر مني، حتى الان، لم يتجرأ احد على مخاطبة كما تفعلين انت اقصد ولا اية خادمة او

www.elromancia.com

مرافقة عادةً، عندما يتخذ قراراً، لا يقبل اية مناقشة، ومع ذلك، يستمع اليك بكل هدوء، سبق له ان جلد بالسوط اناساً لم يقولوا عُشرَ ما سمحت لنفسك برميه في وجهه، يجب ان تنتبهي ولا تستفزيه اكثر، رأيته مرة غاضباً عندما كنت لا ازال طفلة صغيرة ولم انسى ذلك ابداً، اتساءل اذا راته امرأة اخرى هكذا؟».

«اتتكلمين عن امرأة معينة، يا شقيقتي الصغيرة قاطعها صوت دمتري الذي كان يقف امام الباب.

انتفضت ماشا واحمر وجهها، دخل دمتري بهدوء ولاحظت ايما ان صديقتها مرعوبة من فكرة ان يكون قد سمع بداية حديثهما. كان مرتدياً ملابس الخروج ويحمل معطفاً تحت ذراعه.

«الى اين انت ذاهب؟» سألته بصوت مرتجف، لكنها بسرعة استعادت هدؤها واضافت.

«اتجلس معنا وتشاركنا شرب الشاي؟».

«جوادي مسرج ولا يمكنني ان اتأخر طويلاً» قال دمتري وهو يجلس على الكنبة.

«انا ذاهب الى بيتر هوف وسأبقى هناك حتى آخر الاسبوع، اذا كنت متعقلة، ربما سأحضر لك هدية من هناك».

«اوه نعم! زجاجة عطر فرنسية» صرخت ماشا بحماس.

«ستعود من اجل الحفل الراقص؟».

«بالتأكيد! ما هذا؟» سأل وهو ينظر الى اوراق رسم على الطاولة.

«من رسم هذه النماذج؟ هذه الاثواب حقاً جميلة جداً...».

«انا» تمتمت ايما واحمر وجهها، كانت تفضل ان لا يرى الاوراق فهي لم تُري رسوماتها لاحد من قبل، ولا حتى لماشا، انها اشياء تعتبرها شخصية وتمثل الاثواب التي تحلم بإعدادها ذات يوم، لقد قضت ساعات طويلة ترسمها باهتمام كبير لانها رمز احلامها وآمالها.

«موهبة اخرى لك تحاولين اخفاءها» قال دمتري مفكراً.

انت لم تجيبي على سؤالي، ماشا، عن اية امرأة، كنت تتكلمين؟».

«كنا نتساءل اية واحدة من صديقاتك الكثيرات سترافقك الى الحفل المقنع» اجابته ماشا بصوت ارادته ان يكون طبيعياً.

«اجمل فتاتين في كل روسيا» اجابها دمتري بمرح وهو ينهض ويحمل الاوراق.

«اريد ان تطلع جلالتها على هذه النماذج انت لا تمانعين، ايما، اليس كذلك؟».

«لا، ابداً» وكيف كان يمكنها ان ترفض؟.

ركضت ماشا الى النافذة لتنظر اليه وهو يذهب على صهوة جواده يتبعه خادمه الوفي جان، ولكن عندما اعادت طرف الستارة الى مكانها، عاد وجهها لحزنه السابق.

«لن يتغيب سوى لبضعة ايام فقط» تمتمت ايما محاولة مواساتها.

www.elromancia.com

«ذهب لرؤية الامبراطورة! انت تعلمين، اليس كذلك؟».

«هو حر في ان يفعل ما يريد، هذا ليس شأني».

«ولا شأني ايضاً، لكني عندما اذهب الى سانت بيتر سبورغ، يأتي فاسيلي كلما رغبت ودون ان اطلب اذن دمتري، صداقته مع كاترين خطيرة جداً، لقد جلب لنفسه الكثير من الاعداء بسببها، لديها رجال آخرون فلماذا تريده هو ايضاً؟ اذا نجح القيصر في التخلص منها، ستكون حياته في خطر السجن او النفي او اسوأ من ذلك، مع انه يعرف تماماً بماذا يجازف!».

«ربما يعتقد ان هذا يستحق العناء؟».

«فقط لو يقبل بأن يتزوج ويستقر في ماليفكا، بامكانه ان يختار بين عشرات الفتيات المناسبات في سانت بيتر سبورغ، وهنا ايضاً، لن يجازف بشيء».

اذاً دمتري لم يتكلم حتى الان عن مشروع زواجه مع شقيقته، لكن ربما لا يعلق اهمية على فكرة الزواج...

في يوم الحفلة المقنعة في بلمايا، اختفت انوشكا خادمة ايما، فبحثت عنها طوال النهار دون اية نتيجة نزلت لتسأل عنها من جديد عندما سمعت شتائم وضربات، توقف قلبها وبخطى مترددة فتحت باب مستودع خلف المنزل تصدر منه الاصوات.

كان عدد من العمال والخدم مجموعين فيه، لكن لم يلاحظ احد منهم وجودها لانهم كانوا كلهم مشغولين بمشهد الرجلين الذين يتعاركان على الارض بكل وحشية

وبدون شفقة.

بسرعة ادركت ايما ان احدهما هو دمتري والاخر هو شاب اصغر سناً واضعف بنية، ففي كل مرة، كان ينهار على الارض، لكن دمتري كا يسحبه من جديد من قميصه ويضربه مرة ثانية بعنف ووحشية كبيرين.

وضعت يدها على فمها كي تخفي صرخة ذعر بينما وجه دمتري لخصمه ضربة اخيرة رمته الى الخلف فارتطم جسده بحاجز خشبي وسمعت ايما تحطم الاخشاب تحت الصدمة.

«ابعدوا هذا القذر من امامي!» صرخ دمتري.

عندما رأت الرجل مضرجاً بدمائه والرجال يسحبونه كحيوان متوحش هربت ايما وقلبها محطم امام فكرة ان الرجل الذي تحبه ليس بالفعل سوى قاتل عنيف.

بدأت الشمس بالمغيب عندما لاحظت انه يجب عليها ان تستعد للحفلة المقنعة، مع اختفاء انوشكا وهذا المشهد الفظيع الذي رأته، لم تعد ترغب بالتسلية، لكن فات الاوان الان لتعلن انها لم تعد تريد الذهاب.

كانت تسرح شعرها عندما جاءت كاتيا واعلنت لها ان سيدتها ماشا تنتظرها في الصالون، نظرت مرة اخرى الى المرآة قبل ان تنزل بسرعة للإنضمام الى ماشا، كانت ماشا تجلس بانتظارها ولاحظت على الفور نفاذ صبر الاميرة التي كانت ترتدي ثوباً من الستان الرائع وعقداً من اللؤلؤ يزين صدرها، اما وجهها فكان شديد الحمرة بينما شقيقها يسكب كأساً من البورتو محاولاً ان يطيل صبرها عندما

دخلت ايما، على الفور، التفت الامير نحوها مبتسماً، لكن قلب ايما قفز من صدرها واحست باشمئزاز ينتابها، احدى وجنتيه متورمة ويوجد اثر ازرق على جبينه خلف هذا الظاهر اللطيف يختبىء رجل رأت قسوته وعنفه قبل ساعات فقط...

«اتشربين كأس بورتو قبل رحيلنا، آنستي؟» سألها وهو ينظر باعجاب الى شعرها الطويل الاسود المنسدل على كتفيها.

«لا، شكراً!».

عقد دمتري حاجبيه ونظر اليها بدهشة وحيرة قبل ان يرتدي معطفه وقفازيه.

«اذاً بامكاننا الذهاب، انت شاحبة هذا المساء بعض التوتر؟ الفتاة تكون دائماً مرتكبة في اول حفل راقص لها، لكن لا يجب ان تقلقي، كل شيء سيسير على ما يرام، عند عودتنا الى سانت بيتر سبورغ، يجب ان ترافقي ماشا الى كل السهرات التي ستملين منها وبعد بضعة اسابيع ستبدئين مثلي بالتأسف على هدوء ماليفكا».

«سأكون على كل حال سعيدة اكثر في سانت بيتر سبورغ» تمتمت بصوت ملؤه المرارة.

«كنت اعتقد مع ذلك انك كنت سعيدة هنا... ولكن بدون شك لديك اسباب شخصية كي تكرهين الاقامة هنا، كذلك الشيء الذي جعلك ترتعشين يوم وصولك، الا تزالين تذكرين، على...».

«هذا لا علاقة له باسبابي الحالية!».

«اذاً ماذا حصل منذ زواج قريبتك كي تصبحين تعيسة هكذا؟».

«انت من يسأل؟... بعد ما حصل ظهر هذا اليوم؟».

«وماذا تعرفين عما حصل بعد ظهر هذا اليوم؟».

صعقها صوته ونظرت ماشا بفضول نحوهما وهي تضع كأسها جانباً.

«من اطلعك على الامر؟».

«لا احد! شاهدت ذلك بنفسي، انه امر فظيع! كدت تقتل الرجل...».

«ومن تعتقدين نفسك كي تسمحين لنفسك بان تحكمي على افعالي؟».

«لا شيء يبرر كل هذا العنف!».

«قاتلت بيدي فقط مع انه كان يجب ان استعمل معه السوط!».

«بضربك رجلاً اضعف منك؟ انه حقاً مثال للشجاعة!».

لمعت عينا الامير بالغضب وتساءلت ايما للحظات اذا كان سيضربها؟ هي ايضاً لكنه اكتفى بان قال بصوت مليء بالاحتقار..

«في المرة القادمة عندما ستوجهين الكلام لي. آنسة فرازر، سيكون عليك ان تقدمي الاعتذار وقبل ان تحكمي علي، كان يجب عليك ان تستعلمي وتتحققي من دوافعي» ودون ان يضف كلمة اخرى، ادار ظهره وامسك ذراع ماشا ليرافقها الى العربة التي تنتظرهم.

طوال الطريق، لم يوجه لها اي كلام وعندما وصلوا الى

www.elromancia.com

بلمايا، ساعد شقيقته في النزول من العربة، ولم يهتم ابداً بايما.

كانت آن مشرقة في ثوبها الأبيض وتزين جيدها بعقد يتلألأ تحت الأنوار، كانت تبتسم بإشراق وأدهشت ايما عندما قبلت خديها وأطرت على جمالها وأناقتها.

«انت رائعة هذا المساء، اليس كذلك، نيقولاس؟ تعالي معي، يجب ان اقدمك الى كل اصدقائي، سيكونون سعداء بالتعرف عليك!».

قبل ان تتمكن ايما من التلفظ باية كلمة، امسكت آن ذراعها بقوة وبصوت مرتفع اخذت تقدمها لاصدقائها الواحد تلو الآخر، ولكن بشكل جعلتهم جميعاً يفهمون انها ليست سوى خادمة قدم لها الامير دمتري عملاً احساناً منه كمرافقة لشقيقته كي تجدلها سقفاً وطعام.

في اقل من نصف ساعة، علم الجميع هويتها، وبالطبع، بدأت النساء بالنظر اليها من اعلى، واذا تجرأ بعض الشبان على دعوتها للرقص! فكرت ايما بغضب وهي تنسحب من الحجل والعار الى زاوية بعيدة نسبياً عن حلبة الرقص.

«الا ترغبين بالرقص؟» سألها الامير نيقولاس وهو يقترب منها.

«هل انت متعبة؟».

«لا... ولكن مع كل هؤلاء الناس...».

«هذا ليس شيئاً بالنسبة للحشود التي ستواجينها في سانت بيتر سبورغ عندما ترافقي ماشا الى سهراتها!».

في هذه اللحظة، مر الامير دمتري امامها متأبطاً ذراع شقراء حسناً وراته يعقد حاجبة عندما رآها برفقة شقيقه.

«الا يزال غاضباً ام انه لا يريدها ان تكون على علاقة مع نيقولاس؟».

«انا سعيد برؤيته دمتري قادراً على الترفيه عن نفسه رغم ما حصل بعد ظهر هذا اليوم» قال نيقولاس وهو ينظر الى اخيه يبتعد مع رفيقته.

«انت ايضاً تعلم...».

«بالتأكيد! توقف هنا كما يفعل دائماً اثناء عودته من بيتر هوف... ففي غابة قريبة من هنا وجد تلك التعيسة الحظ، حاول دمتري اولاً كل ما بوسعه لمساعدتها، وهو الذي بحث عن المعتدي عليها، يبدو انه اكتفى بضربه، انا لو كنت مكانه، لقتلته على الفور».

«انا... لا افهم... عن اية فتاة تتكلم؟».

«ليحملني الشيطان! لقد قلت لتوك... المسكينة! قبل موتها تمكنت من اعطائه اسم هذا المجرم الحقير».

«ارجوك، عمن تتكلم؟ توسلت اليه ايما بشحوب».

«اريد ان اعرف».

تأملها نيقولاس قليلاً ثم امسك ذراعها وقادها نحو غرفة المكتب ثم اغلق الباب خلفها ودعاها للجلوس.

«سأروي لك كل شيء...».

«انا... كنت قاسية جداً مع شقيقك، حتى انني تحديته... وتقريباً أهنته و... ولكن، لماذا لم يشرح لي؟ تمتمت بيأس وندم.

«أهنته! بينما كان يريد فقط ان يجنبك الهم... انها خادمتك، انوشكا!».

صرخت ايما وجحظت عيناها من الخوف بينما تابع الامير بصوت هادىء وهو يمسك يدها بلطف.

«لم لايجرؤ على قول الحقيقة لك، كان يعلم انك تحبين انوشكا...».

«كنت سأكلمه عن امر اختفائها... كانت صغيرة... يا الهي، اي بلد بربري هذا! وانا التي لمته و...!».

«دمتري كان جندياً، يعرف ان الموت ليس شيئاً والقرويون سيعرفون كيف سيجعلونه يدفع ثمن جريمته هذه بقية ايام حياته كوني متأكدة انه لن يجرأ بعد اليوم على الاعتراض على ايه امرأة اخرى...».

بقي الاثنان صامتين للحظات، ثم انحنى الامير نحوها وهمس بصوت ملؤه المرارة.

«ايما، نحن صديقين اليس كذلك؟ انا بحاجة لنصائحك وانت الوحيدة التي يمكنني الوثوق بها»

«ولكن، لديك شقيقك وماشا...».

«ماشا لا تزال صغيرة ودمتري يعيش وحيداً منذ مدة طويلة واخشى ان لا يفهمني، انت عشت مع آن، وتعرفي عيوبها ومزاياها، لا تزال آن ترفضني، ايما!».

«ولكن... ولكن هي زوجتك!».

«لا تزال تمنعني من دخول غرفتها، اشعر بان لمساتي تضايقها واحس بانها تكرهني، مع ذلك انا احبها! حاولت كل شيء كي تكون سعيدة، ولكنها ترفض القبول بانني

قادر على ان اكون زوجها».

«ربما تفضل ان تكون على العكس، متسلطاً معها» اجابته ايما بتردد.

كيف يمكنها ان تقدم له نصيحة بينما هي في الخامسة والعشرين فقط ولا تعرف شيئاً عن كل هذه الامور؟.

«تعتقدين ذلك؟ انها تتكلم بدون توقف عن والديها وعن انكلترا، هل كانا قريبين جداً منها؟».

«والدها، نعم، للحقيقة، انا لم افهم لماذا لم يرافقاها، لا أحد يمكنه ان يحل مكان العائلة والاصدقاء، اذا اردت ان اكتب لهم».

«نعم، اطلبي منهم ان يأتوا الى سانت بيتر سبورغ، سأدفع تكاليف سفرهم، ولكن لا تهمسي باية كلمة لدمتري، لديه ما يكفيه من الهموم».

هزت ايما رأسها موافقة وتساءلت كيف يمكن ان تكون نوعية مشاكل دمتري؟ انه غني قوي... الا اذا كان القيصر... فجأة تذكرت ما قالته لها ماشا واعترتها رعشة.

«سأرسل لهم رسالة غداً».

«حسناً، ستصلك في صباح غد رسالة واعتماداً من مصرفي ترفقينه بطي الرسالة».

فجأة، فتح الباب ودخل دمتري بخطواته الواثقة، احست ايما على الفور باحمرار وجهها.

«اذاً هنا تختبىء» قال لاخيه ولكن وهو يحدق بايما بنظرة جافة.

«اندريه كوستوف يبحث عنك من اجل مباراة الورق التي

www.elromancia.com

وعدته بها».

«حسناً، مع انه سيخسر نصف امواله وسيكون لي حظ بالربح».

اجابه نيقولاس ضاحكاً.

«كنت اكلم ايما عن ما حصل للمسكينة انوشكا، لا تزال منهارة، ايمكنك البقاء معها قليلاً، دمتري بينما انضم انا الى اندريه؟».

«اهتمام نيقولاس بك مثير» قال لها دمتري باحتقار بينما نيقولاس يغلق الباب وراءه.

احست ايما وكأنها تلقت ضربه قوية على قلبها، هذا ليس عدلاً! كانت تتوقع كل شيء الا هذا...

«ماذا تعتقد انك قاطعت، سون التس؟ شقيقك قادني الى هنا.

اخبرني بهذا الحادث الفظيع الذي تعرضت له انوشكا، لماذا لم تقل لي شيئاً؟ ارجوك ان تقبل اعتذاري ولكن...».

«في المرة القادمة، حاولي ان تحفظي لسانك! كما وانني اجد نفسي مجبراً على تذكيرك بانني ادفع لك كي تهتمين بشقيقتي لا بشقيقي».

«شقيقك، هو الوحيد الذي اظهر لي بعض الصداقة منذ وصولي الى روسيا، وهذا المساء، وبفضل اخلاق قريبتي، لم يعد هناك من احد لا يعلم بانني لست سوى خادمة!» بعد هذه الكلمات المريرة، غادرت الغرفة دون ان تنظر اليه.

في صباح اليوم التالي، كانت على وشك انهاء رسالتها الى آل تاران عندما وصلتها رسالة في بلميا مع اعتماد مصرفي مرفق بكلمة من نيقولاس يطلب فيها منها ان تسلم الرسالة الى خادمه الذي سيوصلها الى اقرب مرفأ...

رافقت الرجل في البهو وكانت تنظر اليه وهو يبتعد من الشرفة عندما عاد دمتري من نزهته الصباحية ورماها بنظرة حيرة بعد ان رأى الفارس الذي يبتعد.

«انا... تلقيت لتوي رسالة من آن» قالت ايما متلعثمة.

«هي ترغب في ان نتصالح من جديد...» ثم ادارت وجهها وقد احمرت وجنتاها من الاربتاك وهربت الى غرفتها قبل ان يطرح عليها مزيداً من الاسئلة، في السادس والعشرين من شهر نيسان وصل الرد في انكلترا، قبل آل تاران الدعوة وسيصلان في منتصف شهر ايار الى سانت بيتر سبورغ سيكون الامير نيقولاس سعيداً جداً!.

بعد ظهر هذا اليوم، كان الطقس جميلاً ودافئاً فأخذت ايما كتاباً من المكتبة وخرجت الى الميدان، كانت تقوم بنزهات يومية حول القصر واكتشفت مقعداً حجرياً مريحاً يمكنها القراءة بكل هدوء. كانت مستغرقة في القراءة عندما حجب عنها ظل اشعة الشمس جعلها تنتفض من الخوف.

«آه، هذا انت، سون التس! لقد اخفتني... شقيقك لم يعد بعد من بيتر هوف».

«اعلم، سيتبعني مع آن، اردت ان اشكرك لما فعلته من اجلنا اتمنى ان يسعدها وجود والديها، انها بمزاج منعكر

جداً هذه الايام».

«انت لم تكلمها عن دوري في كل هذا، سون التس كذلك؟ ستكون غاضبة جداً و...».

«نيقولاس» صحح لها مبتسماً، السنا اقارب واصدقاء؟ اذاً، نادني باسمي».

«نعم...».

«الى اللقاء يا قريبتي العزيزة» اضاف وهو ينحني ليطبع قبلة محبة على جبينها.

بنفس اللحظة ظهرت آن ودمتري في اول الممر وارتفع صوت آن الحاد بينما ايما تنهض متعثرة مرتبكة.

«ماذا كنت اقول لك! انظر اليهما...».

اكفهر وجه نيقولاس على الفور وركب جواده ورمى زوجته بصوت حاد والغضب يلمع في عينيه.

«كفى، آن!».

نظرت اليه آن باحتقار وتلألأت الدموع في عينيها، ثم انطلقت بجوادها مسرعة نحو المنزل.

«امسكها» قال دمتري بجفاف لشقيقه. «وانت ماشا عودي الى المنزل اريد ان اكلم الانسه فرازر على انفراد».

«اذهب نيقولاس، ارجوك» تمتمت ايما متوسلة بينما مرت ماشا امامها ونظرت اليها بجفاف.

«انت على حق، ستتكلم بهذا لاحقاً دمتري» اضاف ملتفتاً نحو شقيقه قبل ان ينطلق بجواده.

«الان، آنسه فرازر اصبحنا وحدنا» قال دمتري وهو ينزل عن مطيته، اريد معرفة الحقيقة، شقيقي يتصل بك منذ

حفل بلمايا الراقص، اليس كذلك؟».

«نعم» اعترفت وهي تنظر اليه بتحد.

«وانت تتصلين به، اذاً هذا صحيح...».

«بماذا تتهمني بالتحديد؟».

«انت تعرفين جيداً! لو كان لدي عقل سليم، لارسلتك على الفور لحزم حقائبك».

«ليس الامر ابداً كما تظن».

«اذاً لماذا كذبت بشأن الرسالة؟ كنت تطلبين من نيقولاس ان يلاقيك هنا؟ اتكرهين اذاً قريبتك لهذه الدرجة كي تحطمي سعادتها! يوجد ما يكفي من عازبين حولك كي لا تختاري رجلاً متزوجاً! انا هنا، مثلاً...».

اضاف وهو يمسك ذراعيها بعنف.

«انا حر عازب».

«حر؟ انت لست حراً! انت تنتمي للقيصرة!» اجابته بيأس وهي تحاول التخلص من قبضته.

شحب وجه الامير وصفعها بكل قوته ثم اطبق شفتيه على شفتيها وضمها اليه وهو يداعب كتفيها وعنقها برقة جعلتها ترتعش.

بعد لحظات، كفت عن المقاومة، لكن كانت هذه اللحظة التي اختارها الامير ليدفعها عنه فجأة ويقول بصوت قاس.

«كنت قد حذرتك بانه في المرة القادمة عندما نعلن النار، لن تخرجي منها بسهولة، من مصلحتك ان تكون هذه آخر مرة» وبعد كلمات الانتقام هذه ادار ظهره وتركها

ترتعش على المقعد الحجري.

في صباح اليوم التالي، كان الحادث قد شاع في كل المنزل، وبما انها لم تكن تريد ان تسيء ماشا الفهم، ذهبت اليها لتروي لها كل القصة وتطلب منها ان تحتفظ بسر زيارة آل تاران القادمة.

«ماذا احسست عندما قبلك دمتري؟» سألتها ماشا بمكر.

«ما هذا السؤال! لا شيء، بالتأكيد».

«الم تقعي بالحب من قبل؟».

«ابداً، فتاة بدون دوتا لا تهم احداً».

«لا تقلقي، سأجد لك زوجاً غنياً في سانت بيتر سبورغ».

«لا شكراً. انا سعيدة كما انا» اجابتها ايما بمرارة.

هذا المساء، كانوا كلهم يستعدون للذهاب الى بيتر هوف حيث تقيم الامبرطورة حفلة راقصة، كانت ايما في غرفتها ترتدي ملابسها عندما دخلت الخادمة لتعلن لها ان سون التس دمتري ينتظرها في صالونه الخاص، عندما دخلت، كان يقف امام طاولة عملهايتأمل قطعة التطريز التي كانت تعمل عليها بعد الظهر التفت نحوها ببطء يتأملها بدون حقد للحظات قبل ان يقول.

«استلمت كلمة من نيقولاس لتوي، واخيراً لن يأتوا هذا المساء، آن مصابة برشح خفيف، لكن نيقولاس يرى انه من الافضل لها عدم الخروج من المنزل، لو سمحت، اخلعي هذه الميدالية» اضاف مشيراً الى الميدالية.

الذهبية التي تشكل كل ما تملكه وورثتها عن والدتها.

«لقد احضرت لك هذا العقد لتضعينه مكانها».

«ولكن هذا... كثير وثمين، سون التس!».

قالت متلعثمة وهي تنظر الى العقد المزين بالالماس الذي يتلألأ في راحة يده.

«هذا ليس بمتناسباً مع وضعي!».

«والانكليز، هل يتصرفون دائماً بطريقة مناسبة؟» سألها بسخرية وهو ينزع الميدالية من جيدها.

«يجب ان تكوني متألقة امام جلالتها، هذا المساء، الثلج والنار، اتساءل ما الذي يطغى على الآخر لديك، ايما فرازر» اضاف وهو يتراجع عنها.

احمر وجه ايما ونظرت اليه بغضب، اذا انتشرت بعض الشائعات حولها، فهي لم تكن تعرف ما يتخيله الجميع برؤيتها متزينة هكذا، وهو ايضاً يفكر بنفس الشيء على الاقل، هذا ما تقرأه في عينيه.

«منذ البداية. سون التس وانت لا تتوقف على الحكم علي بشكل خاطيء و...».

«لم يكن عليك سوى ان تقولي لي الحقيقة، وانا اقدم لك كل اعتذاري، ولكني لست اعمى، آنستي».

لم تجبه ايما، كانت لتسعد كثيراً بالتزين بهذا العقد لو لم يكن بينهما سوء التفاهم هذا...

«ماشا بمزاج ممتاز هذا المساء، فكرة ان تلتقي بفاسيلي زوروف هناك ليست غريبة، انا اطلب منك ان تكوني منتبهة جيداً».

- ٣ -

كأنه كان يقصد بانه هو ايضاً سيكون مشغولاً مع الامبراطورة، فكرت ايما وهي تشعر بالغيرة والمرارة.

القصر الصيفي في بيتر هوف كان من ايام بيار الكبير المفضل للقياصرة وللامبراطورة كاثرين كانت تحب ان تقيم فيه، طالما ان القيصر لا يغادر تقريباً انيبان حيث يعيش في عزلة وسط حاشيته.

الامبراطورة ايضا لديها الكثير من الانصار، من بينهم اشقاء اورلوف الذين كانوا ماهرين ليجذبوا الى معسكرهم كل من هو مهم في الجيش.

يقال ايضاً بان ما يقرب من عشرة الاف رجل هم مستعدون للموت من اجلها، ما ان دخلت صالة الرقص الواسعة، لاحظت ايما على الفور الى اية درجة كاثرين

شعبية في المنطقة، لم يسبق لها ان رأت كل هذه البذات العسكرية والضباط!.

اما ماشا، فلم تكن عيناها تبحثان سوى عن ضابط واحد على امل ان ترى هذا الرجل الذي لم تتوقف عن التفكير به طوال فترة نفيها في مالنيفكا.

تقريباً على الفور اقترب رجل عسكري منهم وشد على يد دمتري بمحبة قبل ان يهمس باذنه ببعض الكلمات، اعتذر الامير وتركهما وحدهما ليتجه نحو الطرف الآخر من الصالة حيث تجلس الامبراطورة على كنبة مذهبة وسط حاشية من الرجال يبحثون كلهم عن لفت انتباهها.

جو غريب كان يسود بين هؤلاء الرجال والنساء، في وسط الطريق بين المؤامرة والتحريض الذي يسبق دائماً احداث يوم تاريخي، يقال ايضاً بان مجموعة من الجنود في حال التأهب والكثيرون لا يزالون مترددين الى جانب اي معسكر ينحازون، اللعبة كانت خطيرة وبالامكان ان يفقد المرء رأسه الى جانب هذا الطرف او ذاك...

«انت رائعة ايما هذا المساء، انا سعيدة لان اخي، ولمرة واحدة، اتبع نصائحي».

«ماذا تقصدين ماشا؟ انا لا افهم...».

«عاتبته على طريقة تصرفه معك بالامس، بالتأكيد لم اعطه الاسباب الحقيقة، ولكني جعلته يفهم انني كنت اعلم بأنك لست مذنبة في شيء وانه يدين لك بالاعتذار، اتمنى ان تكون هديته قد اعجبتك».

«هدية...؟ ولكنه لم يقل لي شيئاً! لا يمكنني قبولها!

سيظن الناس. . . ».

«لست مضطرة لجعل الجميع يعرفون، لا بد انه وجد ان هذه طريقة افضل الاعتذار دون ان يتنازل عن كبريائه».

مرة اخرى ايضاً اساءت ايما فهم دوافع دمتري الذي لم يحاول شيئاً لافهامها نواياه!.

في نفس اللحظة اقتربت صديقة ماشا، ناتاشا كوستوف وبدأت تثرثر حول آخر الازياء الفرنسية والشائعات التي تدور في البلاط وعن آخر عشاق القيصرة الحاليين، الوسيم جورجي اورلوف، فجأة، قطعت ناتاشا ثرثرتها وانحنت على اذن ماشا وهمست ببعض الكلمات، على الفور لمعت عينا صديقتها واحست ايما على الفور بضرورة الحذر، ونظرت نحو اتجاه نظرات الصديقتين ورأت شاباً يرتدي بدلة الحرس الامبراطوري يتقدم نحوهن التي تدل على ثقته بنفسه وكبريائه.

انسحبت ناتاشا بعد ان نظرت بطرف عينها الى صديقتها، بينما انحنى الضابط امام الاميرة الصغيرة.

«كنت أمل ان تكوني هنا، هذا المساء، تمتم الشاب وهو يرفع يدها نحو شفتيه».

«فاسيلي، انا سعيدة جداً برؤيتك اخيراً. . . ايمكنني ان اقدم لك ايما فرازر مرافقتي الجديدة؟».

«كلبك الحارس تقصدين!».

«فاسيلي امنعك من ان تتكلم هكذا عنها، ايما هي صديقتي».

«اذا كنت حقاً صديقتها» قال فاسيلي بابتسامته العذبة

ملتفتاً نحو ايما.

«اتمنى ان تكون ايضاً صديقتي، من الجيد ان نعرف بانه يوجد على الاقل شخص واحد يفهمنا ويساعدنا، ايمكنني ان ادعوك للرقص؟».

اضاف وهو يضع يده بكل ثقة على ذراع ماشا التي احمر وجهها على الفور. . . .

«عل مرأى ومسمع من مرافقتك طبعاً!».

تركتهما ايما يبتعدان دون ان تقول شيئاً، لكنها شعرت بالعار من هذه المهنة التي اوكلها اليها الامير دمتري، فاسيلي هذا قد لا يكون الشاب الذي كان يجب ان تختاره الامبرة، لكنه يبدو مناسباً اذا كانت ماشا تحبه حقاً. . .

بعد دقائق، انضم اليها الامير دمتري برفقة الضابط الذي حدثه فور وصولهم، ورأى الثنائي يرقصان فعقد حاجبيه.

«ارى ان ماشا لم تضع الوقت» قال بجفاف.

«انهما يرقصان فقط» اعترضت ايما مدافعة عنهما رغماً عنها.

«اذاً انت توافقينها على اختيارها؟».

«لست انا من يحق له الحكم عليهما، سون التس».

«يسعدني انك تعرفين ذلك، اريدك فقط ان لا تنسي واجبك اتمنى ان لا اضطر لتذكيرك. . . ».

«هيا، انظر ماذا فعلت! لقد اربكت هذه الفتاة الفاتنة» قاطعه رفيقه مبتسماً.

«انت لا تفهم اذاً شيئاً عن اللياقة، يا عزيزي دمتري!

النساء لا تحب ان يوجه اليهن حديثاً بهذه اللهجة القاسية وتكرهن ان يذكرهن احد بضعفهن».

«ايمكنك ان تراقب ماشا؟ يجب ان اقدم الانسه فرازر الى جلالتها» طلب الامير دون ان يجيب على ملاحظته.

«بشرط ان تسمح لي برقصة مع رفيقتك الفاتنة!» اجابه الآخر بهدوء حذر.

«اسألها بنفسك!» اجابه الامير بابتسامة ساخرة.

«الانسه فرازر غيورة جداً على استقلاليتها».

«اخشى ان لا يسمح لي الوقت بالرقص...» بدأت ايما بلهجة غاضبة لكن رفيق دمتري تجاهل اعتراضاتها.

«سأحجز لك المازيركا القادمة، الان، اين هي شقيقتك الجميلة، دمتري؟ آه، لقد رأيتها مع هذا الشاب المهارش الذي يهمل بعناد تحذيراتك له، انت صبور جداً معه، يا عزيزي...».

«ربما لن يدوم هذا طويلاً، تعالي ايما».

الامبراطورة كانت لا تزال محاطة بالمعجبين ولاحظت ايما بشكل خاص ضابطاً وسيماً يقف خلف كنبتها، يبدو وكأنه يشبه صديق دمتري.

لكنه اطول قامة وارق ملامحاً، ايكون هو جورجي اورلوف الشهير او انها استبدلته هو الآخر؟.

اشارت لها القيصرة على الفور بالاقتراب منها.

«انا سعيدة برؤيتك من جديد، آنسه فرازر، الاحظ بعض التحسن عن المرة الاخيرة، يا عزيزي دمتري، اعتقد انك سعيدة في روسيا اليس كذلك، ايما».

«كثيراً، جلالتك» اجابتها ايما واحمر وجهها لانها محط انظار الجميع.

«هل انت راضية عن وضعك الجديد عند آل ادشيف؟».

«انا ممتنة جداً لسون التس لانه سمح لي بالبقاء في روسيا بعد زواج قريبتي».

نظرت الامبراطورة بمكر نحو دمتري ثم نهضت بينما بدأ الموسيقيون بعزف لحن جديد.

«ستكون هناك فرصة جديدة لاراك، آنسه، ارغب الان بالرقص» قالت وهي تلتفت نحو الرجل الذي يقف خلفها وهي تمسك ذراعه بحركه تملكية جعلت ايما لا تستطيع منع نفسها من النظر الى الرجل الذي يقف بجانبها صامتاً، لكن وجهه لم يكن يدل على اي انفعال.

«اترغبين بالرقص؟» سألها دمتري بهدوء.

«نعم، شكراً لك».

ماذا يهمها على كل حال اذا كانت تحتل المرتبة الثانية في افكاره؟ فهما دائماً بحالة تحد، يجب ان لا تفقد برودة اعصابها، لكن لا يمكنها ان تفعل شيئاً آخر ستبقى تحت سقف منزله لانها تعلم انها تحبه وانها لن تحب رجلاً آخر ابداً، لن تجرؤ ابداً على الاعتراف له بذلك، لكنها ستكون بجانبه كلما احتاج اليها، كهذا المساء مثلاً حيث توجد الامرأة التي يحبها بين ذراعي رجل آخر.

ما ان بدأت الاوركسترا تعزف قطعة مازوركا. حتى جاء صديق دمتري يطالب بما وعد نفسه به.

www.elromancia.com

«قل لي، يا عزيزي، دمتري، اين اكتشفت هذه المخلوقة الفاتنة؟».

«انت تضيع وقتك، عزيزي الكسي، الانكليزيات لا تتأثرن بالمغازلات».

«لا توجد امرأة لاتتأثر! بما ان دمتري لن يفعل، اسمحي لي آنسه، ان اقدم نفسي، الكسي اورلوف، في خدمتك...».

شقيق جورجي! احد الاشقياء الذين يعلنون ولاءهم الكلي للامبراطورة!.

«تصرف جيداً معها» حذره دمتري ممازحاً ومهدداً بنفس الوقت.

«اذا اشتكت منك، اعلم بأنني سأحطم عنقك».

حبست ايما انفاسها وانتظرت رداً لاذعاً من الكسي، لكن هذا الأخير اكتفى بالضحك.

«انا لست مجنوناً لأتقاتل معك، يا عزيزي دمتري! لا تخشى شيئاً، انها بأمان معي» قال مبتسماً وهو يجذب ايما معه.

«انت صديق حميم للسون التس؟» سألته ايما عندما توقفت الموسيقى.

«كنا في نفس الفيلق، بعد وفاة والده، تخلى دمتري عن قيادته ليتمكن من تكريس وقته لاملاكه واراضيه».

«الم تكن الحياة العسكرية تعجبه؟».

«البعض ولدوا لهذا، دمتري لديه موهبة كبيرة، لكن، لو نتكلم عنك انت؟».

«انا آسفة، لكن يجب ان اذهب الان».

وكانت منذ بعض الوقت تتلفت حولها واضطرت لادراك الواقع. ماشا وفاسيلي زوروف اختفيا!.

«اشكرك على هذه الرقصة لكن يجب ان اجد ماشا».

ودارت بنظرها مرة اخرى لتلاحظ ان الامبراطورة وجورجي اورلوف ودمتري اختفوا ايضاً.

«عزيزتي، اخشى انها لن ترغب بان تقطعي وجودها وحيدة مع زوروف ابقي معي...».

«ارجو ان تعذرني».

وابتعدت مسرعة لتبحث عنها لكن ابحاثها لم تعطي اية نتيجة الا انها لاحظت ان عدداً من الضباط اختفوا ايضاً وادركت ان الحفل الراقص لم يكن سوى وسيلة، القيصرة استغلت المناسبة للتعرف على المخلصين لها وربما لتصدر اليهم الاوامر والتعلميات ضد القيصر...

بحثت للمرة الثانية في الصالة الزجاجية الكبيرة عندما فتح احد الابواب الجانبية امام مجموعة صغيرة من الضباط الذين اتجهوا مسرعين باتجاه الصالون الكبير، واخرون تبعوهم فيما بعد وفعلوا مثلهم...

اختبأت ايما في احدى الزوايا وانتظرت ورأت بعد دقائق الامير دمتري يخرج ايضاً برفقة جورجي اورلوف، اذاً هي لم تكن مخطئة في استنتاجاتها، كان هناك اجتماع سري وفاسيلي زوروف لا بد انه حضره ايضاً، كانت قلقة بدون داع! لا بد ان ماشا تتزين في احد الاماكن او تثرثر مع صديقتها.

كانت تخرج من مخبئها عندما فتح باب خلفها وسمعت اصواتاً في الظلام، اصطدم بها رجل وأكال الشتائم عندما وقع كيس قطع النقود الذهبية محدثة صوتاً قوياً. انحنى الرجل وجمع النقود بسرعة، فجأة لمح ايما فراماها بنظرة باردة جعلتها ترتعش من رأسها حتى اخمص قدميها.

«عزيزتي الآنسه فرازر، هل انت تائهه صدفة؟» سألها فاسيلي وروف وهو يمسك ذراعها كان يبدو غاضباً.

ورغماً عنها لم تستطع ان تمنع نفسها من الموازنة بين ظهوره المفاجيء وظهور اولئك الرجال الذين التقت بهم سابقاً اذاً هو لم يحضر ذلك الاجتماع السري!.

«لا. كنت فقط ابحث عن ماشا».

«ليس عليك ان تقلقي، انها في عربتي وانا استعد لمرافقتها الى منزلها».

«ولكن هذا مستحيل! لا يمكنني ان اسمح لك بالرحيل وحدك معها...».

«في نهاية المطاف، انت حقاً كما كنت اعتقد، جاسوسة لحساب دمتري!» قال بسخرية.

«ماشا وانا سنتزوج قريباً وشقيقها لن يتمكن من فعل اي شيء، الافضل لك ان تغيري معسكرك قبل ان يفوت الاوان، ماشا وانا نفسي بامكاننا ان نكون كرماء في المستقبل مع من يساعدوننا في هذه المرحلة الصعبة».

«اطالب بالعودة معكم الى ماليفكا» اجابته ايما بقوة.

«اذا رفضت، سأجد نفسي مجبرة على تحذير الامير دمتري».

«هل الانكليزيون غير حساسين تجاه الحب؟ انت لن تأتي معنا! بامكانك اذن ان تذهبي الى دمتري اذا كان هذا يرضيك، ولكن اعدك بانك ستندمين يوماً لتدخلك في شؤوني!».

وهي تنظر اليه يبتعد، احست بقلق كبير. لماذا يكشف لها عن ذهابه مع ماشا؟ كان بامكانهما الهرب دون ان يعلم احد، الا اذا كان يتمنى ان يلحق الامير بهما... ولكن في هذه الحالة، يجب ان ينتظر منافساً قاسياً ويجازف بالشيء الكثير...

فتح لها خادم باب القصر الكبير ورأت من خلال كوة الباب وجه ماشا القلق وهي تنتظر امام باب عربة. دمتري! يجب ان تجد الامير على الفور! عادت بسرعة الى الصالون وبعد دقائق نجحت في العثور على دمتري حول طاولة اللعب برفقة الكسي اورلوف وبعض الضباط.

«عزيزتي الآنسه فرازر! واخيراً استسلمت لنداء سحري الذي لا يقاوم» قال الكسي ممازحاً وسط ضحكات رفاقه.

«ايمكنني ان اكلمك على انفراد، الامر هام جداً» همست ايما في اذن دمتري دون ان تعير اي اهتمام لنظارت الكسي.

«انت مغلوب هذا المساء يا عزيزي الكسي! انها تفضل دمتري» قال احد رفاقه ممازحاً بينما اعتذر الامير دمتري ونهض ليرافقها الى احدى الزوايا.

«ماذا حصل؟ انت ترتجفين...».

«رحل زوروف مع شقيقتك الى ماليفكا ومنعني من

مرافقتهما».

اشتعلت عينا دمتري بالغضب وسألها بجفاف.

«كم مضى على رحيلهما؟».

«بضعة دقائق فقط كانت عربته تنتظرهما امام القصر».

دون ان يجيبها، ابتعد الامير مسرعاً باتجاه مربض الخيول والعربات.

«انتظرني!» واسرعت خلفه، لكنه لم يستمع لنداءاتها، بل تابع طريقه دون ان يلتفت نحوها.

«ارجوك، استمع لي!».

«ربما يجب علي ان اتركهما يهربان؟» سألها بسخرية وعيناه تلمعان من الغضب.

«يا آنسه، لقد جعلتني افهم جيداً الى جانب من كنت...».

«، هذا ليس صحيحاً!» صرخت وهي تركض خلفه.

«لست ادري كيف اشرح لك، لكنني احسست بانه يتمنى ان تتبعهما، وكأنه يرغب بمواجهة بينكما او يدبر لك شيئاً!».

«حسناً سيكون له ما يرغب، واقسم انه سيندم على اليوم الذي قرر فيه ان يقف في طريقي. عودي الى القصر واطلبي من الكسي ان يعيدك» اضاف بعد ان نادى خادمه جان.

«سأتي معك، لا تفهم اذاً ماذا يريد؟ اذا نازلته وتعاركت معه، لن تسامحك ابداً ستكون انت المسؤول اذا...».

«لا، ستكونين انت المسؤولة!» قاطعها بحدة.

«كان عليك ان تراقبيها، اعتبرك انت المسؤولة اذا حصل اي شيء هذه الليلة».

«انا... انا آسفة...».

ولكنه لم يترك لها الوقت للاعتذار، وصلت عربة خلفهما، فحملها ورماها بالداخل قبل ان يقفز على المقعد بجانبها. ما ان اغلق الباب حتى جلد جان الخيول ونطلقت العربة الى الامام في طريق فرعي يقود الي ماليفكا.

كان جان يجلد الخيل بسوطه والعربة تتمايل بعنف وايما تتأرجح من جهة لاخرى، لكن دمتري كان يبدو غير مهتم تماماً براحة وضعها.

«انا لم اطلب منك المجيء» اكتفى بالصراخ وهو يراها تفرك ذراعها بعد ان اصيبت بجرح اثر هزة اقوى واعنف من سابقاتها.

«لا، ولكني فكرت في حالتك النفسية هذه، لا يحق لي ان اتركك وحدك».

«زوروف ليس سوى عاصي مخادع ينجرف خلف طموحه! انه لا يحب شقيقتي، لكنه يريد ان يستغلها في لعبته القذرة».

ارتعشت ايما وهي تفكر بماشا المسكينة التي خدعتها كلمات فاسيلي المخادع هذا، اذا تعامل شقيقها بعنف معه، سيرمي نفسه رغم كل شيء ويدافع الشفقة بين ذراعيه الى الابد...

ارتعشت من جديد ولكن من البرد هذه المرة. كانت قد خلعت معطفهاالفرو في قصر الامبراطورة وثوب السهرة

الذي ترتديه لا يشكل مقاية جيدة في وجه الهواء البارد الذي يهب مع هبوط الليل والذي يتسرب في الابواب، دون ايه كلمة، ناولها الامير معطفه ثم انحنى ليفتح درجاً سرياً في اسفل مقعده.

«انت بالتأكيد لن تحتاج لهذا» صرخت بقلق عندما رأته يخرج من الدرج مسدسين ويتحقق منهما جيداً قبل ان يدس واحداً في جيب سترته ويضع الآخر بجانبه.

«اذا كنت قلقة علي انا، فهذا مثير حقاً، لكنه غير مفيد».

«لا، ولكن شقيقتك».

فقط لو انك راقبتها جيداً».

«هذا، ليس خطئي، الكسي اورلوف اصر على مراقصتي، لم اكن اريد ولكن...».

«هيا انا لا الومك حقاً، ولهذا السبب اصطحبتك رغم كل شيء، ولكن لماذ يجب ان تترك كل النساء انفسهن تنقاد حسب قلوبهن بدل الاستماع لصوت العقل؟ وكأنهن يجدن لذة في ان تكن معتوهات!».

همت ايما بالاجابة على هذا الاتهام الغير عادل عندما توقفت العربة فجأة ورمتها على صدر دمتري للحظة، احست بحرارة انفاسه على شعرها واخذ قلبها يدق بكل سرعته ولكنه على الفور ابعدها عنه وأمسك مسدسه.

يوجد شجرة في وسط الطريق» قال بعد ان مد رأسه من خلال الباب.

«ابقي هنا، سأرى اذا كان بامكاني ان ارفعها مع جان».

اضاف وهو يقفز من العربة.

نظرت اليه يقترب من جذع الشجرة وكان على وشك ان يضع يده فوق الجذع عندما سمعت طلقاً نارياً ورأته يقع على الارض اسرع رجل على الفور من بين الاشجار يحمل سكيناً في يده، لكن صراخ ايما جاء في الوقت المناسب ليحذره فنجح الامير في ان يزحف الى الجهة الاخري كي يجد نفسه امام عدوه سمعت ايما طلقاً نارياً آخر وسقط المهاجم على ركبتيه امامها.

على الفور اسرعت ايما خارج العربة لانقاذ الامير.

«انت جريح...».

«ايتها المغفلة، عودي فوراً الى العربة» صرخ الامير وهو يتألم.

«ربما لم يكن وحده...».

«لا، لن اتركك ابداً! ضع ذراعيك حول خصري جان حاول ان ترفع هذه الشجرة... بسرعة، اسرع!».

«لا يمكنه ان يقوم بذلك وحده يجب ان نفعل ذلك نحن الثلاثة».

تمتم الامير وهو يرى جان يحاول دون نتيجة.

كان قد نجح في الوقوف مع مساعدتها له عندما ظهر رجل آخر امامهما وارتعشت ايما عندما تعرفت على الرجل الذي كان مع فاسيلي في القاعة الزجاجية.

«يبدو انك. يا آنسه، معتادة على التواجد حيث لا يجب ان تكوني».

«لا توقف، دعها ترحل! انا من تريد خذ حياتي ولكن

دعها...».

«كي تذهب وتشي بنا في اول مناسبة؟ لو لم ارها بنفسي هذه الليلة، لما اعتقدت ابداً انها شريكتك، امير ادشيف».

«ماذا... ماذا يقصد ان يقول؟».

«لا تخافي....» تمتم دمتري وهو يلتفت نحوها ودس يده في جيب سترته لكن قبل ان يلتفت مجدداً اختفت ابتسامة الرجل اثر الضربة القوية التي وجهها له جان على ظهره.

احست ايما بالدوار وكادت تقع، لو لم تكن يدا دمتري هنا للامساك بها ضمها اليه بصمت للحظات قبل ان يسألها بصوت ملؤه الحنان.

«ايمكنك ان تسيري الان؟ شكراً لصراخك التحذيري ادين لك بحياتي... ولجان ايضاً».

«لكن ماذا يقصد عندما اتهمني بانني شريكتك؟».

«فيما بعد... ايما... فيما بعد...».

ببطء لكن بحزم حملها جان ووضعها في العربة قبل ان يضع ذراعاً تحت كتف سيده من اية مصادر مخفية يتمكن دمتري ان يستمد قواه؟ تساءلت ايما وهي تراه يجر نفسه بجانب جان ويبذل كل قوته رغم آلام كتفه ليساعد جان في دفع جزع الشجرة الثقيل الذي يقطع الطريق قبل ان يصعد الى المركبة ويجلس بجانبها.

بعد ربع ساعة تقريباً وصلوا الى باحة ماليفكا رفض دمتري رغم الحاحها ان يتركها تتفحص جرحه بحجة انه

مجرد جرح بسيط، ولكن في ضوء المنزل رأت بقلق كبير ان الدم يسيل على وجهه لان الجرح الذي اصيب به اثناء عراكه.

اما فاسيلي، فاذا كان يريد استغلالها، فلن يسمح لنفسه باقل هفوة ويجب عليه ان يبذل جهده للظهور امام عيني ماشا كالحبيب المخلص الذي لا يهتم بتسلط شقيقها.

«انتظرني في الصالون ريثما اعود» امر الامير خادمه وهو يشد على كتفه من الالم.

كان ذراعه الايسر يتدلى بدون حياة على طول جسده، لكنه رغم الالم يسيطر على نفسه.

«سأرى ماشا وتتكلم فيما بعد، لدي بعض الاسئلة اطرحها عليك».

قال لايما ثم امر جان ان يعد كأساً لها.

هذه المرة، لم تحاول ايما التدخل بينه وبين شقيقته فاسيلي هذا ليس كروميو ليتصدى شقيقها الغيور الذي يرى حمايتها، لقد حاول قتله ليتمكن من الوصول الى غاياته وماشا بحاجة للحماية في وجه مخططاته وفي وجه ذاتها.

«ارجوك، دعني اطلب لك طبيباً».

«ابداً! كي لا يعرف احد بما حصل هذه الليلة، لا اريد ان يلفظ احد اسم ماشا في كل ما جرى».

«ولكن، الخدم...».

«سأهتم بهم، سيتكلمون فيما بينهم، لكن لن تخرج ايه كلمة من هنا، سيسهر جان على ذلك، وبامكاني الوثوق به جيداً» اضاف قبل ان يتركها.

الآن، وقد اصبحت بامان، بدأت تدرك ما كان سيحصل واحست بشبه انهيار، بصمت احضر لها جان كأس بورتو وشكرته على لطفه.

«شكراً لما فعلته، جان بدونك، لما كنا احياء الآن».

نظر الشاب اليها، ولاول مرة رأت ابتسامه تنير وجهه، ثم بعد ان نظر حوله، اشار الى صورة الامير دمتري المعلقة على الحائط واشار الى كتفه وقام بحركات تعني تنظيفه وتضميده.

«نعم، نعم، سأهتم به...» وهزت رأسها وهي تنهض لتضع الكأس جانباً.

ما ان نهضت حتى لمحت صورتها في المرأة الكبيرة ولاحظت ان ثوبها ملطخ بالوحول والدماء، فقط عقدها الذي قدمه لها دمتري لا يزال سليماً متلألئاً، ستعيده له غداً، لا، من الافضل ان تفعل ذلك الان قبل ان تغير رأيها.

ارتجفت يداها وهي تمسك العقد بعد تردد قصير وتضعه فوق المدفأة بجانب الشمعدان، بنفس اللحظة، فتح الامير الباب ودخل بصمت، كان قد خلع معطفة وارتدى روب دي شمبر يخفي اثار الوحل والدماء عن بدلته.

«دعني اعالج جرحك» توسلت اليه ايما.

«لقد فقدت الكثير من الدم...».

«انه جرح بسيط! ليست هذه المرة الاولى، والجروح التي اصبت بها في ميادين الحرب كانت دائماً اكثر خطورة».

«رأسك، على الاقل... يوجد دم على وجهك».

«حسناً. وبنفس الوقت ستقومين لي ببعض الايضاحات... ماذا، ماذا هنالك ايضاً؟ قال متأففاً وهو يلتفت نحو خادمة ماشا التي دخلت الصالون ووجهها مبلل بالدموع.

«انها... الاميرة ماشا» قالت الخادمة وهي تبكي.

«انها لا تتوقف عن منادتك سون التس...».

«لن يقترب احد من باب غرفتها ولن تغادرها الى ان اصبح بحالة تسمح لي بالكلام معها» اجابها بحدة بينما كانت تنظف جرح وجهه.

«ماشا ليست مسؤولة مما حصل هذه الليلة و...».

اعلم ذلك، ولا الومك انت ايضاً، انسي كل ما قلته لك، كنت غاضباً لا ادري ما اقول، كنت مبالغاً عندما طلبت منك ان تكوني صديقتها وحارستها بنفس الوقت. ما اطلبه منك الان ان تكوني في المستقبل اكثر ثقة بي وان تصدقي انني لا اتمنى الا الخير لها، حتى ولو كانت افعالي تبدو غريبة احياناً».

«ماذا تعرف اذاً عن فاسيلي هذا؟».

«اشياء كثيرة ترفض ماشا تصديقها. اذا قلت لك مثلاً هدفه الوحيد هو تدمير عائلة ادشيف، هل تصدقينني؟».

«هو؟ ولكن ماذا يمكنه ان يفعل ضدك وضد نيقولاس؟ انتما قويان وغنيان والامبراطورة نفسها تحميكما».

«واذا كانت لا تستطيع ان تفعل شيئاً لي؟ اذا توقف القيصر عن ان يكون طفلاً وامسك بزمام البلاد... لا، لا

يحق لي ان ازعجك بكل هذه المسألة! سيكون ذلك خطيراً بسبب قلة حذري، كنا سنموت كلينا هذا المساء. كلميني عن هذا الرجل، اي الذي التقيت به؟».

«في القاعة الزجاجية الكبيرة في البلاط، اصطدمت به في الظلام، يبدو انه كان مع الكابتن زوروف».

«في الصالة الزجاجية؟ ماذا رأيت بالتحديد؟».

«انت نفسك برفقة جورجي اورلوف وبعض الضباط تخرجون من اجتماع سري، كنت مختبئة وبينما هممت بالعودة الى صالة الرقص، خرج فاسيلي مع صديقه من غرفة صغيرة خلفي، اعتقد انه كان يعطيه كيساً من النقود الذهبية.

«اصدقك! اذاً لهذا السبب تخيل انك شريكتنا، اعرف هذا الرجل، انه الماني من هوبستين في خدمة القيصر، هو مرتزق، قاتل مأجور».

«هذا... فظيع! اذاً كنت محقة عندما احسست ان زوروف كان يريدك ان تسرع وتلحق به».

«انا ايضاً شككت ان هناك فخاً، لكن غضبي اعماني، هو يعلم لاية درجة احب ماشا ويعلم ان تصرفه سيفقدني عقلي».

«انت... كنت تعلم انه قادر على قتلك؟».

هز دمتري كتفيه ولمعت عيناه ببريق ساخر.

«هذه ليست اول محاولة ولن تكون بدون شك الاخيرة، لهذا السبب انا بحاجة لمن اثق به الى جانب ماشا».

«في المستقبل اعدك بانني سأتبع دائماً اوامرك

بحذافيرها دون ان اتحاز الى صفها».

«الانحياز شيء خطير» قال مفكراً.

«الان، آنستي، اذهبي للنوم لا يمكنك ان تفعلي شيئاً آخر لي على كل حال، لا احب ان اشعر بالضعف امام اي شيء كان».

«كما تريد سون التس» اكتفت بالاجابة بصوت مرتجف. لماذا يجب اذاً ان يتحداها دائماً؟ الديه حقاً اسباب كي لا يريد ان يشعر بالضعف امامها؟.

لم تستطع ايما النوم وصورة الاميرة ماثلة امام عينيها، سمعت في الممر ساعة الحائط تشير الى الثانية، وفجأة سمعت طرقات خفيفة لكن ملحة على بابها، فاسرعت وفتحته ودهشة عندما رأت وجه جان القلق.

«الامير؟» تمتمت ايما بخوف.

هز جان رأسه بحزن فازداد خوف ايما وتبعته بسرعة في الممر كان الامير دمتري نائماً على سريره فاقد الوعي والدم يغطي قميصه ويسيل نقطة نقطة على خده. انه يحترق من ارتفاع حرارته، يجب ان تسرع باستدعاء الطبيب وتخبر الامير نيقولاس كي يمسك الامور بيده.

«جان اذهب وابحث عن خادم الامير، يجب ان ننزع ملابسه ونمدده جيداً ثم اذهب الي بيتر هوف واحضر الطبيب...».

ولكن ما ان لفظت هذه الكلمات حتى سمعت صرير المفتاح في الباب فالتفتت ورأت جان يسند ظهره على الباب ويخبىء المفتاح في جيبه.

«هل اصبحت مجنوناً؟ افتح الباب وافعل ما امرتك به. حياة سيدك بخطر...».

لكن الشاب اكتفى بهز رأسه بعناد ورفض الحراك.

«جان اشفق عليه...».

لكن هذا لم ينفع، الامير بدون شك اصدر اليه اوامر صارمة لن يحاول جان مخالفتها.

«اذاً، ساعدني على الاقل في نزع ملابسه!».

اقترب جان ونجحا معاً في نزع ملابسه وحزائه، لكن عندما رأت ايما جرحه المفتوح احست بقلبها يتمزق. لحسن الحظ، وجدت في غرفة الحمام اناءً مليئاً بالماء فعادة الى الغرفة وطلبت من جان ان يحضر بعض الكحول وقماشاً نظيفاً لتنظيف الجرح وتضميده.

ساعدها جان في لف الجرح ولحسن الحظ لم يكن هناك كسور في العظام، لكنه كان قد فقد الكثير من الدم وحرارته مرتفعة، فحاولت تخفيض حرارته بوضع كمادات من الماء البارد على رأسه ويديه.

«الان ليس امامنا سوى الانتظار والصلاة لله كي يكون قوياً ويقاوم الحرارة» همست ايما وهي تجلس قرب سريره.

غداً، فكرت ايما ستعود لعملها بجانب ماشا، لكن هذه الليلة هي اكثر من ذلك... بعد قليل غلبها النعاس واغمضت عينيها من شدة التعب.

ضجيج اصوات اعادها فجأة الى الواقع انتفضت ونظرت حولها، جان لا يزال نائماً امام الباب، ارتفع الصوت مجدداً ولاحظت ايما ان الكلمات المتقطعة مصدرها

السرير، الامير يحاول الجلوس وهو يكيل الشتائم امام عجزه.

على الفور، اسرعت نحوه وحاولت مساعدته.

«هيا، اهدأ... لا تخاطر...».

تأملها دمتري للحظات ثم هدأت ملامحه ظلت ايما جالسة على طرف السرير تكلمه بهدوء وهي تبلل جبينه وخديه بالقماش المبلل، مررت اصابعها على شعره ووجهه، ابداً لن تشاركه مرة اخرى هذه الحميمة...

فجأة اطبقت اصابعه على قبضتها لم تكن تنتظرها، ونظر اليها نظرة الم ساخر.

«الامير دمتري ادشيف تحت حماية فتاة جميلة وخادم شاب! لو لم اكن متألماً لضحكت طويلاً، منذ متى وانا بهذه الحالة في السرير؟».

«يبدو، سون التس انك لست بحالة صعبة كما كنت اخشى، يظهر انك لست بحاجة لمساعدتي واذا تفضلت واصدرت الاوامر لجان بفتح هذا الباب، يمكنني ان اخرج اخيراً لارتاح في غرفتي».

«وتحرميني هكذا من لمسة الاصابع الرقيقة الناعمة على جبيني؟».

«انا متأكدة ان جان قادر على السهر عليك، افضل مني، كما وانه لديك خادمات اخريات!».

«لكن جان سبق ان خالف اوامري عندما جاء بك الى هنا، هل بدافع طيبتك تبعته؟ ليأخذني الشيطان، اشعر بضعف شديد، اعطني شراباً... فودكا وليس الماء!».

ادركت ايما انه لا فائدة من النقاش وناولته كأس فودكا.

«انا الان من يدين لـك» قال فجأة بصوت خـال من اي اثر للسخرية.

«للحقيقة لست غاضباً لان جان خالف اوامري وقام بهذه المبادرة، الا تفهمين لاية اسباب لا اريد ان يعلم احد بما حصل الليلة الماضية؟».

«بلى، افترض انك تخشى محاولات اخرى، وليس فقط من جانب زوروف».

«الخشية كلمة غير مناسبة، افضل ان استعمل كلمة الحذر...».

انحنت ايما لتمسح العرق البارد عن جبينه.

«ستتمكنين ذات يوم من اسعاد رجل، ايما كثيرون وجدوا انك جميلة جداً هذه الليلة، ألم تلاحظي ذلك؟ ايعجبك ان تتزوجي من رجل غني قادر على منحك السعادة والامان الذين افتقدت اليهما منذ وفاة والدك؟».

«انت... لا تتكلم جدياً؟».

«بلى.. ليس عليك الا ان تقولي لي ما ترغبينه من الحياة وسأقدمه لك، اجدك افضل زوجة في سانت بيترسبورغ شرط ان تعديني ان هذا سيسعدك».

«لا، ليس هكذا يمكنك اسعادي» اجابته متلعثمة واحمر وجهها.

«اذاً ستتزوجيني من اجل المال، المجوهرات والملابس والاسم...».

«اتعتقد ان كل هذا كان كافياً لاسعاد قريبتي؟».

«نعم... على الاقل، بالتأكيد اذا كنت تنفين اهتمام نيقولاس بك».

«لقد اخبرتك بالحقيقة لكنك تعاند ولا تريد تصديقي».

«انا اصدق ما تقوله لي عيناي، انتما التقيتما سراً اليس كذلك؟».

«نعم. ولكن ليس من اجل الاسباب التي تتخيلها».

«الم اره يقبلك؟».

«على جبيني... كصديق او شقيق».

«على كل حال، هذا لم يعد مهماً، لن تكوني وحدك ابداً معه بعد الان هل كلامي واضح؟».

«نعم...» اجابته بسرعة كي تتمكن من اجباره على التمدد من جديد وعلى ان يجدد هدوءه.

«اشعر بالعطش...».

انحنت ايما لتتناول كأس الفودكا، لكنها فجأة احست بيديه تجذبها نحو صدره، لمعت عيناها من الخوف، لكنها لم تعرف كيف حافظت على السيطرة على هدوئها.

«اتعلمين انني قادر على ان امسك بك هكذا، وانك ستجدين معي لذة اكبر مما تجدينه مع شقيقي؟ هيا، لا تتظاهري بالخوف لست رجلاً يرغم امرأة على شيء لا توافق عليه، مع انني متأكد انك لن...».

«اولاً تتهمني بمحاولة اغراء شقيقك والان، انت... لا، هذا كثير! كلامك جارح مع انك تعلم ان نيقولاس صديق فقط بالنسبة لي!».

«عندما أمسك امرأة بين ذراعي واقبلها، احب ان تعلم

تماماً ما ارغب به... نحن لسنا اعداء، وبامكاني ان امنحك كل ما نيقولاس عرضة عليك... كماواني لست متزوجاً، انا!».

«ولو كنت متزوجاً؟ لن تعرف زوجتك كيف تجعلك مطيعاً كما تعرف الامبراطورة ان تفعل».

دفعها عنه فجأة وصرخ بحدة.

«انها المرة الثانية التي تلمحين الى علاقة بيني وبين الامبراطورة، انتبهي يا صغيرتي، انت تنسين انني قادر على ان اكون سيدك ومولاك اذا شئت، لقد تركت لك بعض الحرية لانني اعجبت بشجاعتك وارادتك، لكن استطيع ان احرمك من كل شيء وبكل سهولة، يجب ان تحذري، انا لست سهلاً كنيقولاس...»

«اوه انت لا تطاق!» صرخت واجهشت بالبكاء على كرسيها... «هذا حقاً كثير».

ظل دمتري للحظات يتأملها صامتاً وكأنه يراها للمرة الاولى، ثم اغمض عيناه ولم يعد يسمع سوى صوت انفاسه المنتظمة، بعد ساعات، استيقظت ايما على طرقات عنيفة على الباب.

«دمتري، لماذ تقفل على نفسك؟ دمتري اجبني!».

انه صوت نيقولاس! نظر اليها جان متسائلاً، اذا لم يفتحوا له الباب سيحطمه وسيلومها شقيقه.

«افتح، لكن لاتدع احداً غير نيقولاس يدخل!».

بدأ جان يفتح الباب بحذر، لكن الامير نيقولاس قدم قدمه ودفع الباب بسرعة وبدا خلفه كل الخدم مجتمعين

ينظرون الى ايما بقميص نومها والامير نائم، كانت نظراتهم تؤكد انهم يتخيلون علاقة بينها وبين الامير.

اغلق جان الباب في وجههم وبدأ يقوم بحركات امام نيقولاس، لكن الامير استوقفه على الفور.

«انت تعلم انني لا افهمك ابداً» وكان يبدو مصدوماً بوجود ايما، فنظر اليها بسخرية بينما احمر وجهها من شدة الخجل.

«اعذريني يا قريبتي الصغيرة، لكن ليس من عادة اخي ان يقفل الباب على نفسه كان يجب علي ان افهم انه... مشغول».

«كان هنالك... حادث، سون التس، الليلة الماضية اثناء عودتنا من بيتر هوف...».

«حادث سخيف!» قاطعها صوت دمتري بسخرية وضعف.

«الحقير زوروف ارسل قاتلاً ماجوراً يتربص لي في الطريق. كدنا نقتل جميعاً لكن لحسن الحظ، نجح جان بانقاذنا، ساعدني... اشعر بالعطش وراسي كاد ينفجر».

«يا الهي يجب ان ننادي الطبيب» قال عندما رأى الضمادات على كتف شقيقه، بينما دمتري شحب وجهه اكثر منه.

«لا، لقد عالجوني، لا ضرورة للطبيب للحقيقة لم افعل ما استحق عليه كل هذا الاهتمام» قال متألماً وهو ينظر بطرف عينه نحو ايما.

«سأذهب الى المطبخ واطلب منهم ان يعدوا لك

www.elromancia.com

الفطور» قالت ايما دون ان تنظر اليه.

«ثم يجب ان اذهب الى غرفتي لابدل ملابسي».

«انا لم اكن في كامل وعي» قال دمتري بينما نيقولاس ينظر اليهما بدهشة وحيرة.

«انت لاتستحقين ما قلته لك، انا اعتذر...».

«انها الحرارة، سون التس، انا لم اعر ذلك اية اهمية، عذرك مقبول».

وغادرت الغرفة مسرعة الى جناحها كي لا يلاحظ الخدم توترها وارتباكها.

ما ان دخلت ايما غرفتها تفاجأت برؤية آن آخر من كانت ترغب برؤيته.

«ايما! من اين تأتين لتكوني في مثل هذه الحالة؟ لماذا لم تنامي في سريرك؟ قيل لي بأن حادثاً وقع ليلة امس...».

«آن ارجوك، لا تطرحي علي اي سؤال انا متعبة جداً».

«انت لم تنامي في غرفتك، اليس كذلك؟ سمعت كلاماً يدور بين الخدم، لا تسألين كيف وضعت حداً لاقاويلهم، تجرؤا على التلميح بأنك ودمتري...».

رفعت ايما نحو قريبتها عينيها المليئتين بالدموع ونظرت اليها بدهشة.

«لكنك، مع نيقولاس، لم تظهري كل هذا التفهم قبل ان تتهميني...».

بدا الأسف فجأة على وجه آن ورمت نفسها امام كرسي ايما وقالت نادمة.

«الن تسامحي غبائي ابداً؟ كنت غيورة جداً برؤيته يتفاهم جيداً معك اوه، ايما لنكن صديقتين من جديد! انا سعيدة جداً واريدك ان تشاركينا سعادتنا، وعدت نيقولاس ان...».

«ماذا... ماذا حصل بينكما؟» سألتها ايما بدهشة وهي لا تصدق.

«انه يحبني. يحبني حقاً، وانا ايضاً احبه؟ حتى الامس، لم اكن ادرك ذلك بالامس رفض مرافقتي الى البلاط ومنعني من الذهاب، كان غاضباً ولامني على تصرفي معك، تصوري انه ضربني...

اوه، ايما، لم اكن اعتقد انني قاسية لهذه الدرجة معك! قال... قال لي كل شيء، انت تسامحينني، اليس كذلك؟ اعدك بانني لن اعود كما كنت في السابق ابداً! اخبرني نيقولاس ان ابي وامي يستطيعان البقاء في سانت بيتر سبورغ قدر ما يشاءان اليس هذا رائعاً؟».

«انا سعيدة لانهما سيأتيان» قالت ايما وهي تتثائب.

«اوه، عزيزتي المسكينة! انت لم تنامي كل الليل وانا اكلمك عني بدل ان اهتم بك، سأطلب من الخدم ان يعدوا لك حماماً ساخناً ويحضروا لك الافطار».

لم يسبق لايما ان رأت قريبتها تهتم باي شخص قبل، وكأنها تغيرت تغيراً جذرياً مرة اخرى كان دمتري محقاً عندما قال بان الزواج سيعطي ثماره وسيسعد آن كما كان يأمل.

شعرت ايما براحة كبيرة بعد الحمام الساخن، جلست

www.elromancia.com

تتناول فطورها وآن تجلس قربها.

«كان لديك الشجاعة على الاعتراف لنيقولاس لايه درج تحبينه اليس كذلك؟».

«خلال نقاشنا قال لي كلمات قاسية جداً، لكنه فيما بعد ضمني بين ذارعيه وافهمني انني كنت غبية عندما اعتقدت انه قادر على حب امرأة اخرى غيري... ولكن ما الذي دفعك للبقاء مع دمتري طوال الليل؟ كان بامكان ماشا ان تبقى معك والخدم ايضاً...».

«لم تكن ماشا حذرة ليلة امس عادت الى هنا وحدها في عربة ضابط فحبسها شقيقها في غرفتها واقفل عليها بالمفتاح».

«فسيلي زوروف؟ لقد التقيت به في احدى الحفلات، انه شاب غير مناسب يسعى فقط للحصول على دوتة ماشا المسكينة، اذاً قضيت الليل وحدك معه، لا يدهشني ان تسري الاقاويل...».

«انت لاتفهميني، آن حصل حادث، كما واني لم اكن وحدي معه، كان جان موجوداً ايضاً».

«بل على العكس، اعتقد انني فهمتك جيداً، انت تحبين هذا الفظ المتعجرف اليس كذلك؟».

«انه ليس... فظاً ولكن ارجوك، آن لا تكلمي احداً بهذا الموضوع والا سأجد نفسي مضطرة للعودة الى انكلترا اذا لاحظ شيئاً».

«ولكنك تعلمين انه يحب امرأة اخرى... اوه، اعذريني، ايما، ولكن من الافضل ان تعلمي والا فهو

سيحاول استغلالك الى ان تدرك الاخرى مشاعره نحوها».

«ليلة امس، كان بحاجة لي، ربما يتكرر هذا مرة ثانية وسأتمكن من الشعور ببعض الرضا...».

«انت تستحقين اكثر من ذلك، يحق لك ان يكون لديك رجل لك وحدك انت شجاعة وتملكين ارادة قوية كوالدتك التي استطاعت ان تقول «لا» لعائلتها من اجل الزواج من الرجل الذي كانت تحبه، اعلم ان والديّ كانا قاسيين نحوك، ولكني اعدك بمحاولة اصلاح بعض ما تسببا لك به».

«ارجوك، آن، كل هذا اصبح من الماضي الان».

«آه، فقط لو انني استطيع مساعدتك...».

«جرح دمتري ليس خطيراً، حالياً هذا كل ما يهمني».

«ذات يوم، ستدركين انه من الصعب ان لا يعيش المرء الا من اجل التضحية، نيقولاس وانا، سنذهب الى منزل آل كوستوف بعد ظهر هذا اليوم، لماذا لا تأتين معنا؟ بامكانك ان تمضي الليلة ايضاً في ضيافتنا، هذا يساعدك على تغير افكارك» قالت آن وهي تنهض.

نزلتا السلم يداً بيد فالتقتا، بنيقولاس يخرج من مكتب دمتري ويحمل اوراقاً بيده، ما ان رآهما هكذا، حتى اشرق وجهه على الفور.

«ارى انك اتبعت نصائحي» تمتم وهو يمسك ذراع زوجته.

«الم تجعلني اعدك بذلك؟ لقد تصالحنا ولن نختلف بعد اليوم ابداً».

www.elromancia.com

«يسعدني ذلك، اما انت يا قريبتي الصغيرة، سأكون ممتناً لك الى الابد لما فعلته الليلة الماضية».

«ولكني لم افعل شيئاً...».

«انها وجهة نظر، على كل حال اعلم انه ليس من عادة اخي المبالغة».

«اذاً تعالي واشربي الشاي معنا يوم الخميس» قالت لها آن مبتسمة.

«سنذهب الثلاثاء الى سانت بيتر سبورغ، يا عزيزتي» قال لها نيقولاس.

«كما واننا سنذهب جميعاً الى هناك، يجب ان يكون المنزل جاهزاً لاستقبال والديك».

«اوه، نيقولاس هذا رائع!».

ودعتهما ايما وكانت تهم بالعودة الى غرفتها عندما ناداها صوت دمتري.

«غادرت الفراش! انه جنون! مع كل الدم الذي فقدته...».

«ارجوك ايما تعالي الى مكتبي، افضل ان يبقى ما حصل بالامس سراً».

«اعذرني، نسيت» تمتمت وتبعته بهدوء.

«اتشربين القهوة؟».

«لا شكراً، تناولت الفطور مع آن».

«آه نعم! الحمد لله لم يكن هناك ما يثير القلق من هذه لناحية! اعتذرت منك؟».

«نعم لكن هذا لم يكن ضرورياً لو كنت مكانها

لتصرفت مثلها، انها تحب نيقولاس و...».

«اعلم وشقيقي اخبرني باشياء اخرى ايضاً...».

«عن وصول آل تاران؟ هذا ضروري لسعادتها آن كانت تعيسة ونيقولاس ايضاً...».

اذاً، انت تهتمين بشقيقي رغم تحذيري!».

«اهتم به كصديق كان دائماً لطيفاً معي وتعجبني صداقته».

فقط لو يمكنني انا ايضاً ان يكون لدي نسيب مخلص هكذا» قال مبتسماً بمرارة، على كل حال انا ادين لك بالاعتذار، واعترف بانني كنت مخطئاً واعترف ايضاً انني اراقب احياناً من احبهم اكثر مما يجب».

«اقبل اعتذارك، سون التس، الان اذا لم يكن لديك ما تقوله، ربما تسمح لي بالانسحاب، انا متعبة جداً و...».

«وترغبين بالابتعاد عني باسرع ما يمكن، ايه انسانة غريبة انت! الا ترغبين اذاً باستغلال انتصارك قليلاً، كما تفعل كل النساء لو كن مكانك؟ لكنك مختلفة جداً عن الاخريات.. لست ادري لماذا، لكن هناك اشياء فيك تثير كل احاسيسي بالمناسبة» اضاف وهو يخرج من جيبه العقد الذي تركته ايما مساء امس فوق المدفأة.

«ماذا تريدينني ان افعل بهذا؟ تعلمين انه لك! انه وسيلة لاطلب منك ان نعقد السلم».

«اعلم، ماشا شرحت لي، كان سوء تفاهم واعتقدت من البداية...».

«انني اريدك ان تظهري في البلاط كامرأة... بدون

فضيلة، اليس كذلك؟ يجب ان تكون هناك صداقة كبيرة يا عزيزتي ايما بيننا كي نتوقف عن جرح مشاعر بعضنا!».

«ال... الصداقة؟ انت... انت سيدي».

«وهل هذا يكفي لتمنعي عني صداقتك، وتمنعينني من ابداء اعجابي بك ومرافقتك؟ لماذا تنظري الي بكل هذه الدهشة؟ الا تعتقدين نفسك جميلة للفت نظري؟».

«سبق ان قلت لي انك اخترت من ستكون زوجة لك، اليس لرابطة الزواج اهمية في نظرك؟».

«عندما تعقد هذه الرابطة امام الله، اقسم لك انها ستكون ابدية!».

«اذاً، لماذا؟».

«لماذا اكلمك هكذا اذاً؟ هيا، أأنا اطلب الكثير؟ نعم ربما...

انت لم تقعي في الحب من قبل ولا تعرفين طول ليالية كيف يمكنك ان تفهمي؟ احياناً، اتساءل اذا كانت الامرأة التي اخترتها تلاحظ فقط انني موجود، تعلمت ان اكون صبوراً، وتعلمت الانتظار الى ان تدرك انني اعبدها واتعذب بصمت».

«لا بد انك تحبها كثيراً».

«يبدو ان هذا يدهشك اتعتقدين انني خال من اية احاسيس؟ هذا لا يدهشني، لقد لمتني عدة مرات على تدخلي بشؤون نيقولاس وماشا...».

«كل هذا من الماضي نيقولاس وآن سعيدان اليوم».

«اتمنى ذلك، ولكن يبقى ماشا، لست مبالياً بمشاعر

الاخرين كما تظنين احياناً لا اجد الكلمات المناسبة كما هو الحال معها الان...».

ثم تنهد والتفت نحو النافذة المطلة على باحة القصر، ولاحظت ايما ان جان يخرج لتوه حصاناً دمتري لاسود.

«انت لن تمتطي الحصان اليوم!».

«لا، لكنني طلبت من جان ان يخرجه قليلاً، يبدو انك مهتمه جداً بصحتي بينما ترفضين صداقتي...».

«لن تكون مناسبة ابداً سون التس».

«يا لك من عنيدة! انا لا اطلب شيئاً آخر غير الذي طلبه نيقولاس، لا احاول ان اجذبك الى سريري... كل ما احتاجه هو ان اجد شخصاً يمكنني الوثوق به».

الصداقة، الثقة؟ هل هذا حقاً ما تريده ايما؟ اليس هذا كثير ولا يكفي بنفس الوقت؟.

«كيف يمكنك الاعتماد علي بينما انا نفسي لم استطع منع ماشا من الرحيل مع زوروف».

«اخبرتني ماشا انك لم تكوني تعرفين».

«هل سترافقنا ماشا الى بيتر سبورغ؟».

«اتريدين ان اجازف بتركها وحدها هنا؟ انا لم اقل لها حقيقة هذا القذر، واتمنى ان لا تعرف ابداً، لكنني سأفعل المستحيل كي لا تكون وحدها معه مرة اخرى».

«اعدك بانني سأحاول اقناعها».

«وتعرضين نفسك لخسارة صداقتها؟».

«التضحية هي اقل واجبات الصداقة.

«نحن لسنا عدوين» تمتم وهو يمسك يدها ويرفعها الى

شفتيه.

بما اننا اصدقاء اسمح لي ان اتوسل اليك كي ترتاح اليوم على الاقل، ليس من الحذر ان تبقى واقفاً رغم جروحك».

في الايام الاخيرة قبل رحيلهم الى سانت بيتر سبورغ بدا الجميع مشغولين بالاستعداد لاستقبال آل تاران، اما ايما فقد حصلت على جناح بجانب جناح ماشا وأصبحت تجد كل صباح تقريباً الهدايا على طاولتها، زجاجة عطر او ثوب او حلي... كانت تعلم انها اصبحت جزءاً من العائلة وانها لن ترحل ابداً عن منزل ادشيف.

في يوم وصول آل تاران، اعدوا عشاءً فاخراً لاستقبالهما والامير دمتري رغم معارضته الاولية على مجيئهما، امر باحضار افضل النبيذ من القباء لاستقبال والدي آن.

كانت ايما تقف امام النافذة بعد ان ارتدت آخر ثوب خاطته لها السيدة تيريز عندما سمعت طرقات على بابها، التفتت فجأة وعلى الفور قفز قلبها من صدرها عندما رأت دمتري قد دخل بهدوء.

«آل تاران في الصالون مع نيقولاس بينما آن تبدل ملابسها، لم اكن ادرك الى اية درجة هما مقربان منها».

ثم تأملها للحظات بصمت واعجاب.

«الا تزالين ترفضين قبول هذا العقد؟» قال بخجل وهو يخرج العقد الالماسي من جيبه.

«انت تعلمين الان انني اقدمه لك عربون صداقة...».

كان صوته رقيقاً عذباً مليئاً بالحنان لدرجة انها لم تجرؤ

على الرفض، بدون اية كلمة، رفعت شعرها الطويل وانحنت نحوه ليتمكن من وضعه في عنقها.

«سامحتني، اذاً؟».

«لماذا اسامحك؟».

«لانني جعلتك حزينة قبل رحيلنا الى ماليفكا».

«لكنني كنت سعيدة...».

«اذاً لماذا تقول لي عيناك العكس؟».

«ربما، بسبب قلقي لانني سألتقي بعمي وعمتي الذين تعتبرهما...».

«اذاً اعرف وسيلة للتخفيف عنك وتبديد غيوم قلقك» قال بمرح وهو يمسك يدها ويقودها نحو الباب.

«سترين، هما ليسا بغولين، وانا مقتنع انهما سينظران اليك بطريقة مختلفة عن السابق».

عندما وقع نظرهما عليها، حبس آل تاران انفاسهما، رؤيتها تتابط ذراع الامير دمتري كانت كوقع الصاعقة عليهما وهما الذان كانا يعتبرانها خادمة لا اكثر.

لحسن الحظ، تلطف الجو وثرثروا جميعاً بمودة، وتمنت ايما لو انهما كانا لطيفين معها هكذا في الماضي.

اثناء تناول الحلوى، وضع نيقولاس يده على يد زوجته بحنان كبير وقال لها.

«قولي لهم يا عزيزتي» شجعها بلطف.

«الا يزعجك ذلك؟».

«على العكس! انا اسعد الرجال على الاطلاق يسعدني ان يشاركني والداك وشقيقي وقريبتك فرحتي وسعادتي».

«انا انتظر طفلاً» قالت آن متلعثمة واحمر وجهها من الفرح والخجل، قدم لهما الجميع التهاني ونهض دمتري ودعا الجميع لشرب نخب المولود الجديد، كان صوته هادئاً، لكن ايما لاحظت انه يفكر باليوم الذي يمكنه ان يعلن فيه بنفسه عن مجيء ابنه...

ثم انسحب الجميع الى الصالون بينما تأخر دمتري ينتظر ايما.

«الخبر الذي اعلنته قريبتك اسعدك كثيراً، اليس كذلك».

«بالفعل، انا سعيدة لاجلهما».

«اعتقد نيقولاس ان وجود آل تاران يزعجني وانني غاضب منك طمأنته، كل ما يهمني هو سعادته، انت ليس لديك اخ ولا اخت ولا عائلة غير آل تاران، من المحزن ان يشعر المرء بالوحدة، يسعدني جداً ان تكون وجدت اخيراً مسكنا لك في منزلنا».

«طالما انت راض عني، سون التس، سأكون سعيدة بالبقاء الى جانبك».

رماها دمتري بنظرة غريبة وكأنه كان ينتظر جواباً آخر.

لم يكن شهر حزيران في سانت بيتر سبورغ سوى سلسلة من الاستقبالات والحفلات التي تنتهي مع الفجر، وكانت ايما دائماً على حذر لتجنب اي لقاء بين ماشا وفاسيلي، في مناسبات نادرة، كان دمتري يرافقها الى المسرح او الاوبرا، لكنه في اغلب الاحيان كان متغيباً عن قصر ادشيف ولا يعود الا بعد منتصف الليل، لم تعد ايما

تشك بان القيصرة وكل المخلصين لها في خطر مميت، فالقيصر يهدد بالنفي في سجن شليسيلبورغ، بينما كان الاشقاء اورلوف يكتسبون الجند شيئاً فشيئاً الى جانب الامبراطورة، كان القيصر في اورانتبان يستعد للهجوم على الدانمرك لاستعادة الشلسويغ.

«هل ستأتين معنا؟» سألتها آن بينما نيقولاس يساعد اللايدي تاران في الصعود الى العربة.

«ماشا تعاني من صداع قوي، وارغب بعض الراحة، لكنني لا اريد ان يمنعكم هذا من التسلية...».

ابتعدت العربة ودخلت ايما الى القصر، اي هدوء! فكرت وهي تتجه نحو غرفة المكتبة لتختار كتابا يسليها في السهرة، لكنها كانت على وشك ان تفتح الباب عندما سمعت صوت دمتري القاسي الحاد.

«انت مغفل، باسيك! اتنوي ان تركع امام قدميها؟ الا تدرك باننا تحت المراقبة؟».

فتح الباب فجأة ومر امامها ضابطاً بزيه العسكري وجهه احمر من شدة الغضب بينما خرج دمتري خلفه.

«يجب ان امسك هذا الرأس المشتعل قبل ان يقوم بحماقة اخرى!».

«هل قام بعمل ما دون حذر؟».

«باسيك احمق، هذا المجنون سيرمي نفسه امام قدمي الامبراطورة ويقسم لها بانه سيقتل القيصر! اذا لم يوقفه احد، سنجد كلنا انفسنا في مناجم سيبريا».

ارتعشت ايما، لم يسبق لدمتري ان عبر بهذا الشكل

العلني وكل كلامه يدل على انه ليس فقط صديقا للامبراطورة بل احد رؤساء العصبة التي تدعمها وتعترض على ارادة القيصر.

«الا يمكنني مساعدتك بشيء؟ اعلم انك مشغول وشقيقك ايضاً...».

تأملها دمتري للحظه ثم هز رأسه بالايجاب.

«نعم، ربما اكون بحاجة للكلام مع احد، ولكن فيما بعد، نحو منتصف الليل ايمكنك ان تصبري وتنتظريني؟».

«نعم، اعدك بذلك».

«بالمناسبة، لقد سمحت لنفسي ان اطلب من السيدة تيريز ان تعد لك ثوباً جديداً بدل ذلك الثوب الذي تمزق اثناء عودتنا من البلاط وامرت الخادمة ان تحمله الى غرفتك، اتمنى ان يعجبك».

«انا متأكدة! ولكن لم يكن يجب، سون التس... سأصعد واراه على الفور واجربه» اضافت بحماس، وكانت قبل نزولها من الغرفة قد لمحت علبة كبيرة على طاولتها، لكن ماشا كانت قد نادتها فلم يسمح لها الوقت لترى ما بداخله.

باصابع مرتجفة، رفعت غطاء العلبة، لكن على الفور تحول فضولها الى دهشة مزدوجة مع عدم التصديق، لا، هذا ليس ممكناً! لا بد ان هناك خطأ ما! قالت لنفسها وهي تتفحص ثوب الزفاف الستان الابيض مع توابعه... ستعيده لها في صباح الغد، ولكن بانتظار، الغد، الاغراء قوي،

فلم تقاوم رغبتها في ان تضعه امامها وتتأمل نفسها في المرآة.

انه ثوب رائع... فجأة، لمعت ذكرى في خاطرها، لا، هذا ليس ممكناً ومع ذلك... هذا الدانتيل على الصدر... انه تماماً كنموذج ثوب زفافها! ذلك الذي رسمته بنفسها! ولكن كيف امكن للسيدة تيريز ان تضع يدها على رسوماتها؟ فهي لم تريها لاحد... لاحد؟ بلى، لدمتري! هو استعارها ليريها للامبراطورة، كانت قد شعرت بخيبة كبيرة عندما اعادها لها دون ان يبدي اي تعليق.

فجأة لمحت بطاقة كانت قد انزلقة على الارض، وبدهشة كبيرة تحولت لسعادة اكبر، قرأت السطرين البسيطين المكتوبين بخط دمتري الواضح الجميل.

«اذا قبلت هديتي هذه، تكونين قد حققت اغلى امنية على قلبي».

انه يحبها! ويطلب الزواج منها! دفعه واحدة اخذ قلبها يدق بقوة وسرعة غريبة وساقاها اصبحتا ضعيفتين مما اضطرها للجلوس كي لا تنهار اذاً من اجل ان يطلب يدها طلب منها ان تنتظره... يجب ان ترى ماشا، ان تشاركها فرحتها...

اسرعت الى الممر وعيناها تلمعان من الفرح فتحت الباب بهدوء كي لا توقظ ماشا، في حال كانت نائمة، لكن ماشا كانت مرتدية اجمل ثوب لديها وتملأ حقيبة امامها على السرير.

«ولكن ماذا تفعلين؟ كنت اعتقد انك مصابة

بالصداع . . .».

«كنت اعتقد انك خرجت!».

«كنت تأملين ذلك!».

«اذاً؟ فاسيلي وانا سنتزوج، لقد حصل على اذن القيصر، حتى دمتري لا يمكنه ان يفعل شيئاً الان».

«ماشا، انت مجنونة! انت لا تدركين ماذا تفعلين. اسمعيني . . .».

يجب ان تقول لها لا يمكنها ان تتركها تهرب دون ان تحذرها!.

«يجب ان تعلمي حقيقة هذا الرجل الذي تريدين ان تقضي بقية حياتك معه، لم يكن هناك من لصوص عندما كنا عائدين من البلاط مع دمتري، لكن كان هنالك قاتلان مأجوران دفع لهما فاسيلي زوروف! رأيت بنفسي مال الجريمة . . .».

«لا، لا، اخرسي! انت تكذبين! انت ودمتري تفعلان اي شيء كي تمنعا زواجنا، ولكن فات الاوان الان».

قالت وهي ترتدي معطفها وتتجه نحو الباب والحقيبة في يدها.

حاولت ايما منعها لكن ماشا دفعتها بعنف واسرعت نحو السلم ركضت ايما خلفها، لكن صديقتها سبقتها ووصلت الى باب الدخول بينما كانت ايما لا تزال في منتصف السلم، وضعت يدها على قبضة الباب وهمت بالخروج عندها، وبنفس اللحظة، فتح الباب ودخل نيقولاس وآن.

«اوقفاها! انها ذاهبة للانضمام الى فاسيلي

زوروف . . .».

«لن تذهب الى اي مكان!».

تبعهما رجل آخر ودخل واقفل الباب بالمفتاح.

جحظت عينا ايما من الدهشة، دمتري كان يرتدي زي العسكر. كما في اللوحة المعلقة في الصاون!.

«دمتري ماذا يحصل!» صرخت ماشا بدهشة.

«لا يحق لك! لقد مضى عامان على تخليك عن قيادتك!».

«انه لم يترك الجيش ابداً» قال نيقولاس بهدوء.

«منذ وفاة والدنا وهو احد رؤساء فرقة الاستخبارات عند الامبراطورة».

«تعالي معي ماشا» تمتمت آن وهي تحيط كتفي الفتاة بذراعها.

«حان الوقت كي اشرح لك بعض الاشياء لا، اضافت وهي توقف زوجها الذي حاول اللحاق بها.

«دعني افعل، لديك مهام اكثر اهمية تقوم بها مع دمتري».

ابتعدت ايما لتدعهما تمران، حاولت ماشا الهرب، لكن آن كانت تمسكها بحزم واجبرتها على السير معها، اية صدفة جعلتهم يدخلون ثلاثتهم بنفس الوقت ؟.

دون اية كلمة، مر دمتري امامها ودخل الى مكتبه تقريبا على الفور.

«جان لم يكن مخطئاً، لقد عبث احدهم باوراق، توقيف باستيك امر مزعج، لكن بفضل الله، هذا لن يؤثر على

www.elromancia.com

مشاريعنا».

«توقيف؟».

«من المحتمل انه قلق الآن ويتعذب، كان سيلقى القبض علينا نيقولاس وانا ايضاً لو لم يرى جان زوروف يخرج من نافذة مكتبي، لا داع للخوف، زوروف لن يفضح امر احد، لقد لقنه جان حسابه قبل ان يتمكن من تقديم تقريره للقيصر».

سمعوا بكاءً من الطابق العلوي، وعقد دمتري حاجبيه قبل ان يضيف بمرارة.

«لا بد ان آن اخبرتها كل شيء...».

كانت ايما تستمع لكلام دمتري بشرود، اذاً الاحداث تسارعت وكل شيء يمكن ان ينقلب الى صالح القيصر! باندفاع غريب، تقدمت خطوات نحوه، فضمها بين ذراعيه بحنان.

«لقد رأيت الثوب.. فهمت قصدي، اليس كذلك؟».

«نعم... نعم احبك، دمتري» نجحت في الهمس قبل ان تلتقي شفاههما بشوق حب تحرر اخيراً.

«دمتري، يجب ان تذهب» قاطعهما بعد لحظات صوت نيقولاس.

«نعم انت على حق».

«آن على علم...؟».

«اضطررت للاعتراف لها بالحقيقة منذ قليل، عندما جاء دمتري يبحث عني في المسرح، قالت لوالديها انها متوعكة ورحلنا وتركناهما يشاهدان المسرحية».

«مسكينة ماشا».

«مع الوقت ستنسى، يجب ان الحق بالاخرين، اشرح لها نيقولاس».

اضاف دمتري قبل ان يخرج مسرعاً.

«الى... الى اين يذهب؟».

«الاورلوف اصطحبوا الامبراطورة الى كالينكينا، هناك حيث يجتمع جيش اسمائيلوفسكي، انها تعلم انهم مستعدون للموت اذا لزم الامر، اما دمتري، فذهب ليرأس رجال فيلق بريو برانسكي، منذ اشهر وكل شيء منظم لاقر امر. صداقته للامبراطورة كانت تسمح له ان يكون دائماً برفقتها دون ان يوقظ شكوك جواسيس القيصر».

«اذاً هي لم تكن...».

«الم يقل لك اذاً انه لا توجد امرأة اخرى في حياته؟ انه يحبك، ايما لكن الخطر الذي كان يعيشه كان يمنعه من الاعتراف لك علنا، لقد قرر الزواج منك منذ اللحظة التي رآك فيها في فرنسا...».

كان الفجر على وشك البزوغ عندما سمعت وقع حوافر في الخارج، لم تكن ايما قد اغمضت عينيها طوال الليل، فنهضت عن الكنبة حيث كانت تنتظر رغم تحذير نيقولاس، على الفور، اسرعت نحو الباب وهي ترتجف فضمها دمتري بين ذارعيه.

«الحمد لله لقد تصرفنا بالوقت المناسب! الجيش متراصف خلفنا والامبراطورة تمكنت من العودة الى المدينة وسط هتاف الشعب بأكمله».

«و. . . والقيصر؟».

«انه في طريقه الى البلاط، ولكنه لن يجد الامبراطورة فيه. انها الان في كاتدرائية نوتردام دي كازان حيث بطريرك سانت بيتر سبورغ يباركها، كل شيء انتهى ويجب الآن ان نفكر قليلاً بانفسنا، يا حبيبتي، هذه الاشهر الاخيرة كانت جحيماً ولكني لم اكن اريد ان ازعجك واعرض حياتك للخطر».

رفعت ايما نحوه عينيها المتلألئتين بالسعادة وتمتمت بصوت حنون.

«احبك دمتري واعلم انني سأحبك حتى آخر يوم في حياتي. . .».

عندما امرها عمها وعمتها ان ترافق ابنتهما «آن» الى روسيا للزواج من الامير «نيقولاس ادشيف» الواسع الثراء، امتلأ قلب «ايما» بالامل.